جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

حديث القرآن عن النوم

إعداد

الأستاذ الدكتور

حسين الشربيني محمد الشربيني

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة جامعة الأزهر

مستلة من

حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد الخامس والثلاثون، لعام ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠١٦/٦١٥٧

دار الأندلس للطباعة-أمام كلية الهندسة-عمارات الزراعيين-شبين الكوم ت ٠٤٨٢٢٢٢٠٩٠

المُقَدِّمَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين، حمدا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده. يا رب لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سلطانك. سبحانك لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ على نفسك. والصّلاة والسلام على سيّدنا محمد، خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فإن نعم الله تعالى على الإنسان لا تعد ولا تحصى، ومنها " نعمة النوم "، وتبرز أهمية موضوع النوم في كونه ظاهرة كونية غريزية، فطر عليها الحيوان، فلا يسع أحد من الناس إنكارها. هذا مع التسليم بكون النوم ظاهرة عجيبة تستوقف النظر والاعتبار، فالنوم عالم غريب، حيث يُرى النائم ساكنا، فإذا استيقظ عاد إليه حركته ونشاطه، ويحدثك النائم عن غرائب ما رآه في نومه من عجائب وخوارق لا تحدث يقظة، كأن يرى أمواتا، أو يسافر إلى بلاد لا يوصل إليها إلا بشق الأنفس، ومع ذلك لا تستطيع له تكذيبا. حقا إنه عالم غريب، فهو يمثل بصورة ما عالمي الغيب والشهادة، نرى النائم ولا نستطيع أن نرى ما يراه أو ما يحدث له. لذا كان النوم من أقوى الدلائل على القضية الكبرى المنْكَرة من قبل المشركين، وهي قضية البعث. فكما ينام الناس يموتون، وكما يستيقظون يبعثون.

كما تبرز أهمية دراسة موضوع النوم في لفت النظر إلى كونه نعمة عظيمة من نعم الله، والإنسان دائما بحاجة إلى التذكير بفضل الله عليه، حتى لا يطغى، ولا يفارقه الشعور بالتقصير في جنب الله. وكثيرا ما يصاب الإنسان بالأرق، وتمر

عليه ساعات طوال من الليل مضطربا قلقا، يتحرك على الفراش يمينا ويسارا لا يستطيع النوم. هلا أدرك الإنسان حينها عظم نعمة الله عليه حينما يخلد إلي النوم بهدوء ودون قلق.

وكم من مريض، أصيب بالقلق والاضطراب في منظومة النوم، فيلجأ الأطباء إلى المسكنات والمهدئات، حتى ينعم المريض بساعات من النوم، يصلح بها حاله، وتستقر حالته، ويصل إلى بر الأمان بالشفاء العاجل. فما أعظم فضلك ورحمتك يا رب العالمين، ولكن كثيرا من الناس عن آيات الله لغافلون.

أضف إلى ما سبق، حديث القرآن عن الأشياء، له أسلوب فريد، ومذاق خاص، وأثر عجيب، ولم لا؟ وهو كلام من خلق الكون ونظمه، ويسر لكل شيء وظيفته وهداه، وجعل سننا لكونه بها يصلح إلى غايته ومنتهاه. وفي حديث القرآن إشارات إلى سنن الله في كونه، التي بها يبقى الكون على صلاحه كما خلقه الله، ومن سننه أن ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾ [الفرقان: ٤٧]، وبمخالفة هذه السنن تفسد الأرض، ولا يستقيم العيش فيها، فقد ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: ٤١]. ولو ظل الناس على ما فطر الله الكون عليه لسعدوا وعاشوا في أمن وصحة وعافية.

ولما لم أجد فيما طالعته عيناي القاصرتان أحدا أفرد " للنوم في القرآن " حديثا مستقلا، استعنت بالله – سبحانه – على هذا الأمر، وقمت بتتبع الآيات القرآنية وجمعها ودراستها، ونظم ذلك في بحث مستقل سميته: (حديث القرآن عن النوم)، وهو يتألف من مقدمة وسبعة مباحث وخاتمة:

- **المقدمة:** وفيها أهمية الموضوع وخطته.

- **المبحث الأول:** تعريف النوم وذكر مرادفاته.
- **المبحث الثاني:** نعمة النوم.
- **المبحث الثالث:** الله تعالى لا ينام.
- **المبحث الرابع:** نظرات في آية الزمر.
- **المبحث الخامس:** لا نوم في الجنة والنار.
- **المبحث السادس:** النعاس في بدر وأحد.
- **المبحث السابع:** الهلاك قد يأتي ليلا (وهم نائمون).
- **الخاتمة:** وفيها أهم النتائج.

هذا وما كان من توفيق فمنه وحده، فله الحمد في الأولى والآخرة، وما كان من تقصير فأسأله سبحانه العفو والغفران، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأستاذ الدكتور

حسين الشربيني محمد الشربيني

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة جامعة الأزهر

المبحث الأول
تعريف النوم وذكر مرادفاته

ذكر النوم في القرآن، وذكرت له مرادفات، هي المنام والنعاس والسنة والرقاد والهجوع والهجود، لذا يحسن أولا التعريف بهذه الكلمات. فمعرفة ماهية الشيء عادة ما تكون قبل الخوض في جزئياته.

النوم: من المثير للحيرة أن تحاول تعريف شيء هو أشهر من أن يعرف، ولذا قالوا: وفَسَّرَ الماءَ بعدَ الجُهْدِ بالماءِ. بل تفسير الماء بالماء أسهل. ومن هذا القبيل تعريف النوم، فمن من الناس لا يعرف النوم؟ وإذا سألت أحدا عن معنى النوم، فذلك من دواعي الاستغراب.

لذا لا نعجب من أبي بكر الرازي، عندما صدر كلامه عن مادة ن و م بـ: " النَّوْمُ معروف"[1] ونام فلان (يَنَامُ) من باب تعب (نَوْمًا) و (مَنَامًا) فهو (نَائِمٌ): اضطجع أو نعس. ونام الشيء: سكن وهدأ. ونام إليه سكن واطمأن ووثق به. ونام عن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها. وأَنَامَهُ و نَوَّمَهُ: أرقده. وتَنَاوَمَ: تظاهر أنه نائم. واستنام: نام واطمأن.

وجمع نَائِمٌ: نِيَامٌ، وجمع النائِم نُوَّمٌ على الأصل، و نُيَّم على اللفظ، ويُقال: يانَوْمَانُ للكثير النوم، ولا تقل رجل نَوْمان لأنه يختص بالنداء، ونَامَتِ السوق

---

(١) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي صـ ٦٨٨ الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة طبعة جديدة،–١٩٩٥هـ – ١٤١٥م تحقيق: محمود خاطر.

كسدت ورجل نُوَمَةٌ بفتح الواو أي نَئُومٌ وهو الكثير النوم وليل نَائِمٌ يُنام فيه كقولهم يوم عاصِفٌ وهَمٌّ ناصِب وهو فاعِل بمعنى مفعول فيه.(١)

وهكذا نرى أن مادة الكلمة يدور على معنى السكون والهدوء والراحة والطمأنينة.

النوم في اصطلاح العلماء:

على الرغم من أن "النوم معروف"، اجتهد علماؤنا – أجزل الله ثوابهم – في تعريف ماهية النوم وتفسيره. ومن هؤلاء الإمام الراغب الأصفهاني، عند ذكره لمادة نوم في مفرداته، قال (~): النّوم: فسّر على أوجه كلّها صحيح بنظرات مختلفة، قيل: هو استرخاء أعصاب الدّماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل: هو أن يتوفّى الله النّفس من غير موت. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ [الزمر: ٤٢]. وقيل: النّوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل.أ. هـ(٢) فالموت والنوم من جنس واحد، خلا أن الموت هو الانقطاع الكلي؛ أي: انقطاع ضوء الروح عن ظاهر البدن وباطنه، والنوم هو الانقطاع الناقص؛ أي: انقطاع ضوء الروح عن ظاهره دون باطنه.(٣)

---

(١) انظر: مختار الصحاح للرازي صـ ٦٨٨ والمصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ٦٣١/٢ الناشر: المكتبة العلمية – بيروت. والمعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية بمصر) صـ ٦٤٠ طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى صـ٨٣٠ المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ.

(٣) انظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين العلوي الشافعي٥٢/٢٠ إشراف ومراجعة د: هاشم محمد علي بن حسين، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت ط: الأولى .

والتعريف الأول في كلام الراغب هو الذي تردد ذكره عند تعريف العلماء للنوم، ففي تعريفات الجرجاني: النوم حالة طبيعية تتعطل معها القوى بسبب ترقي البخارات إلى الدماغ.(١)

والفيروزآبادي في بصائره عند تعريفه للنوم ذكر عبارة الراغب السابقة نصا.(٢)

وقال غيره: النّوم: هُوَ حَال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدِّمَاغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بِحَيْثُ تقف الْحَواس الظَّاهِرَة عَن الإحساس رَأْسا.(٣)

واللافت فيما سبق **اتفاقهم على أمرين: الأول:** أن النوم حالة طبيعية تعرض للدواب. **الثاني:** أن سبب النوم هو تلك الأبخرة الصاعدة إلى الدماغ. والأول لا خلاف فيه. أما الثاني فلعلهم ذكروه بناء على ما اشتهر من ارتباط النوم بالأكل، وكأنهم يعنون تلك الأبخرة التي تتصاعد من الطعام بعد تناوله وعند هضمه، ولذا قلَّ النوم في أهل رياضة النفس؛ لقلة الرطوبات فيهم. وفي المقابل يكثر نوم وكسل وخمول من كثر طعامه. ولكن هل يعني هذا أن الأكل سبب رئيس للنوم؟ كما قد يبدو من التعريف. أقول: صحيح أن الأكل، لاسيما إذا كان كثيرا، يساعد على النوم والخمول، والجوع من الأمور المنغصة للنوم والراحة، ولكن النوم مطلب

---

(١) التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني صـ ٣١٧ تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ١٤١/٥ المحقق: محمد علي النجار ، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٣) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، صـ ٩٠٩ المحقق: عدنان درويش – محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

طبيعي يحتاجه الجسم كحاجته للطعام والشراب، والإنسان إذا طالت عليه ساعات الاستيقاظ، يغلبه النوم فينام، ولذا قالوا: النوم سلطان، بل قد ينام الإنسان وهو جوعان لشدة حاجته للنوم والراحة. لذا كان **تعريف "مجمع اللغة العربية" للنوم دقيقا، حيث عرفه بأنه:** فترة راحة للبدن والعقل، تغيب خلالها الإرادة والوعي جزئيا أو كليا، وتتوقف فيها جزئيا الوظائف البدنية.(١)

وقال ابن عاشور: والنوم معروف وهو فتور يعتري أعصَاب الدماغ من تعب أعمال الأعصاب من تصاعد الأبخرة البدنية الناشئة عن الهضم والعمل العصبي، فيشتدّ عند مغيب الشمس ومجيء الظُلمة فيطلب الدمَاغ والجهاز العصبي الذي يدبّره الدمَاغ استراحةً طبيعية فيغيب الحِسّ شيئاً فشيئاً وتثقل حركة الأعضاء، ثم يغيب الحسّ إلى أن تسترجع الأعصاب نشاطها فتكون اليقظة.(٢)

لذا فحاجة الجسم للنوم كحاجته للطعام والشراب تماما بتمام، وأي خلل في منظومة النوم عند الإنسان يؤثر سلبا على الإنسان وحركته في الحياة.

المَنَام: مصدر ميمي بمعنى النّوم، والمنامة: الثّوب الذي ينام فيه (٣) وجاء "المنام" في القرآن في أربعة مواضع، هي: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣] ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم: ٢٣]

---

(١) المعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية) صـ ٦٤١.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٣/ ١٩ الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس،١٩٨٤م.

(٣) انظر: المفردات للراغب صـ ٣٠.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٢] ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢]

مادة "النوم" في القرآن:

جاء ت مادة "النوم" بتصاريفها المختلفة (نوم، منام، نائمون) في تسعة مواضع. بيانها كالتالي:

نوم، النوم، نومكم: ثلاث كلمات في ثلاثة مواضع هي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٧] ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ [النبأ: ٩].

نائمون: في موضعين ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧] ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القلم: ١٩].

منام: في أربعة مواضع ، وقد سبق ذكرها آنفا.

النعاس: يذكر أصحاب كتب المعاجم والتعاريف النعاس مرادفا للنوم، أو مقاربته، أو القليل منه. ونَعَسَ (يَنْعُسُ) من باب قتل والاسم (النُّعَاسُ) فهو

(نَاعِسٌ) والجمع (نُعَّسٌ) مثل راكع وركَّع والمرأة ناعسة والجمع (نَوَاعِسُ) وربما قيل: (نَعْسَانُ) و(نَعْسَى).[1]

قال الراغب: النُّعَاسُ: النَّوْمُ القليلُ. قال تعالى: ﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ** ﴾ [الأنفال: ١١]، وقيل: النُّعَاسُ هاهنا عبارةٌ عن السُّكُونِ والهُدُوّءِ. [2]

وفي لسان العرب: النُّعاسُ: النَّوْمُ، وَقِيلَ: هُوَ مُقَارَبَتُهُ، وَقِيلَ: ثَقْلَتُه. نَعَسَ يَنْعُس نُعاساً، وَهُوَ ناعِس ونَعْسانُ... والنُّعاس: الوَسَنُ؛ قَالَ الأَزهري: وَحَقِيقَةُ النُّعاس السِّنَةُ مِنْ غَيْرِ نَوْمٍ[3]

وفي المعجم الوسيط: (نعس) نعْسا ونَعَسا ونُعاسا فترت حواسه فقارب النوم فهو ناعس... (النعاس) فتور في الحواس والوسن من غير نوم وأول النوم...(النعسة) الخفقة من نوم يقال ركبته نعسة شديدة.[4]

ووردت مادة النعاس في القرآن في موضعين. هما قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ** ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقوله تعالى: ﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ**

---

(١) المصباح المنير للفيومي ٦١٣/٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٨١٤) مادة نعس.

(٣) لسان العرب لابن منظور ٢٣٣/٦ الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ..

(٤) المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين ٧٨٨/٢ تحقيق / مجمع اللغة العربية.

﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال: ١١].

السِّنَةُ:

الوَسَنُ، والوَسْنَةُ والسِّنَةُ، كعِدَةٍ: شِدَّةُ النَّوْمِ، أو أَوَّلُ النوم، أو النُّعَاسُ. والسِّنَةُ: الغفلة والغفوة. قال تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أَي لا يأْخذه نُعاسٌ ولا نوم، وتأْويله أَنه لا يَغْفُل عن تدبير أَمر الخلق، تعالى وتَقَدَّسَ، والسِّنَةُ النُّعَاس من غير نوم، ورجل وَسْنانُ ونَعْسانُ بمعنى واحد. والسِّنَةُ نُعاسٌ يبدأُ في الرأْس، فإِذا صار إِلى القلب فهو نوم. والوَسْنانَ: النائم الذي ليس بمُسْتَغْرِقٍ في نومه، والوَسَنُ أَول النوم والهاء في السِّنَةِ عوض عن الواو المحذوف. وَسِنَ يَوْسَنُ وَسَناً فهو وَسِنٌ ووَسْنانُ ومِيسانٌ. والأَنثى وَسِنَةٌ ووَسْنَى ومِيسانٌ،وتَوَسَّن المرأَة أَتاها وهي نائمة.(١)

والسِّنَةُ وردت في القرآن في موضع واحد، وهو آية الكرسي في سورة البقرة.

الرُّقاد:

الرُّقاد: النَّوْم، والرَّقْدَة النومة، ورَقَدَ يَرْقُدُ رَقْداً ورُقُوداً ورُقاداً نام، وقوم رُقُود أَي رُقَّد، والمَرْقَد بالفتح المضجع، وأَرْقَدَهُ أَنامه والرَّقُود والمِرْقِدَّى الدائم الرُّقاد.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب (صـ: ٨٧٢) والقاموس المحيط للفيروزآبادي (١/ ١٢٣٨) ولسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٤٩) مادة وسن.

وبعضهم يخص الرقاد بنوم الليل، والحق أن الرقاد: النوم ليلا كان أو نهارا،ويشهد له المطابقة[1] في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨].[2]

ولم يرد في القرآن من مادة "رقد" إلا كلمتين، وهما "رقود" و"مرقد"، وهذا في موضعين هما:

الأول: قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٨]

والمعنى: وتحسب أيها الرسول أو أيّها المخاطب أصحاب الكهف، وتظنّهم لو رأيتهم {أَيْقاظًا}؛ أي: منتبهين لانفتاح أعينهم على هيئة الناظر {وَهُمْ رُقُودٌ}؛ أي: نيام جمع راقد كقاعد، وقعود؛ أي: والحال أنهم راقدون نائمون؛ أي: ولو رأيتهم.. لظننتهم في حال يقظة لانفتاح أعينهم، كأنهم ينظرون إلى من أمامهم، والحال أنهم: نائمون لما بهم من الحال الخاصة بالنوم، كاسترخاء المفاصل، والأعضاء، ولا سيما العينان والوجه.[3]

قال ابن كثير: ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ عَلَى آذَانِهِمْ بِالنَّوْمِ، لَمْ تَنْطَبِقْ لِئَلَّا يُسْرِعَ إِلَيْهَا الْبِلَى، فَإِذَا بَقِيَتْ ظَاهِرَةً لِلْهَوَاءِ كَانَ أَبْقَى لَهَا، وَلِهَذَا قَالَ

---

(١) **المطابقة:** وتسمى الطباق والتضاد أيضا، وهي الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة. وهي من المحسنات البديعية في الكلام. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني صـ ٢٥٩ ط/ دار الفكر العربي٢٠٠٠م.

(٢) انظر:كتاب العين للخليل بن أحمد(١١٥/٥ (ط:دار ومكتبة الهلال، ولسان العرب لابن منظور(١٨٣/٣).

(٣) انظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٦/ ٣٠٢).

تَعَالَى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الذِّئْبِ أَنَّهُ يَنَامُ فَيُطْبِقُ عَيْنًا وَيَفْتَحُ عَيْنًا، ثُمَّ يَفْتَحُ هَذِهِ وَيُطْبِقُ هَذِهِ وَهُوَ رَاقِدٌ.(١)

الثاني: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يس: ٥٢] والمرقد مصدر ميمي أو اسم مكان لموضع الرقاد. أي من رقودنا أو من موضع رقودنا.وهي القبور التي كانوا يعتقدون أنهم لا يبعثون منها، وهذا قول الكفار إذا بعثوا يوم القيامة.

هجع:

هجع يهجَع هجوعا: نام ليلا، وأهجعه: أنامه. قال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧] وذلك يصحّ أن يكون معناه: كان هُجُوعهم قليلا من أوقات الليل، ويجوز أن يكون معناه: لم يكونوا يهجعون. والقليل يعبّر به عن النّفي والمشارف لنفيه لقلّته، ولقيته بعد هَجْعَةٍ. أي: بعد نومة، وقولهم: رجل هُجَعٌ كقولك: نُوَمٌ للمُسْتَنِيم إلى كل شيء. (٢)

ولم يرد في القرآن من مادة " هجع " إلا ما في آية الذاريات.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط العلمية (٥/ ١٣٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب (صـ:٨٣٤) والمعجم الوجيز صـ ٦٤٥ مادة هجع.

هجد:

هجَد يهجُد هجودا: نام. وهجَد صلى بالليل، وتهجَّد: استيقظ ليلا للصلاة ونحوها. والهُجُود: النّوم، والهَاجِد: النّائم، وهجّدته فتهجّد: أزلت هجوده نحو: مرّضته. ومعناه: أيقظته فتيقّظ، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩] أي: تيقّظ بالقرآن، وذلك حثّ على إقامة الصلاة في الليل المذكور في قوله: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ ﴾ [المزمل: ٢،٣] والمتهجّد: المصلّي ليلا.(١)

ولم يرد في القرآن من مادة "هجد" إلا" (فتهجَّد) بمعنى تيقظ لقيام الليل. وهو ما جاء في آية الإسراء السابقة.

وهكذا نرى أن الكلمات السابقة قد يدل بعضها على بعض، وإن كان ثمة اختلاف بينها فهو يسير، وللسياق دور كبير في فهم المراد،وهي في النهاية تدور في فلك المعنى العام للنوم.

التعريف العلمي للنوم:

وتتميما لتعريف النوم، يحسن ذكر التعريف العلمي (الطبي) للنوم (sleep). حيث عرف بأنه: تلك الحالة من انخفاض الوعي، مترافق مع نقص الفعالية الإستقلابية(٢)، واسترخاء فزيائي. عندما يخر الشخص نائما، يحدث تغير في

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب (صـ: ٨٣٢، ٨٣٣) والمعجم الوجيز صـ٦٤٤ مادة هجد.

(٢) **الاستقلاب** metabolism هو مجموعة الأفعال الكيمياوية الحيوية والفيزيائية التي تحدث في خلايا الكائنات الحية فتفيد في تمثل مواد الأغذية والحصول منها على الطاقة اللازمة للجسم، كما تساعد على نمو هذه الكائنات وتجدد أنسجتها وصيانتها. نقلا عن الموسوعة العربية بالشبكة العنكبوتية (الانترنت).

الفعالية الكهربائية للدماغ، حيث يمكن أن يُسجَّل بواسطة مخطط الدماغ الكهربائي، (EEG). هناك اتساع عالٍ، أمواج متكررة صغيرة، (نوم أمواج بطيئة) تعترض بفترات قصيرة من اتساع منخفض، أمواج متكررة عالية، تصور الفترات من الأمواج المتكررة العالية عبر النوم، بدون راحة مع الأحلام وحركة العين السريعة (رأرأة)، من هنا سميت (نوم الرأرأة REM sleep)، ومخطط الدماغ الكهربائي مشابه لذلك المأخوذ للشخص المستيقظ. نوم الرأرأة (REM sleep) يشكل حوالي ٢٥% من زمن النوم.(١)

وهذا التعريف يتضمن إلى حد ما ما سبق ذكره في تعريفات العلماء السابقة، كما أنه ذكر أن النوم ليس على درجة واحدة، فهناك نوم عميق، وهناك نوم خفيف، أو الغفوة، وهو ما يعبر عنه بالسنة أو النعاس على نحو ما سبق بيانه.

"وقد ثبت علميا أن النوم انتقال حيوي نشيط فعال من شعور إلي شعور وقد استطاع الأطباء أن يرسموا سواء علي المستوي الأفقي الذي يحدد الزمن، أو علي المستوي الرأسي الذي يحدد درجات النوم، رحلة منام عروس شابة، وقد ثبت من خلال متابعة هذه الرحلة أن الإدراك الجسمي يعمل وبدرجات متعاقبة أثناء رحلة المنام، أي أن المخ البشري ذو نشاط نابض فعال أثناء رحلة النوم.

ولقد أثبتت التجارب المعملية الطبية حول ظاهرة النوم، أنه ليس بأي حال مرحلة ركود وخمول بل هو عامل بنائي ومجال إلهام، كأنك أضأت جهازا تليفزيونيا تقوم خلايا المخ البشري والجهاز العصبي مقام الصمامات.. ثم يتلقي

---

(١) انظر: المعجم الطبي الإنكليزي (قاموس عربي / إنكليزي، إنكليزي / عربي) (٢/٢٦٠) ترجمة وإعداد د/ ناصر فضل الله ناصر الدين، ط/ الأولى ٢٠٠٧م، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، سوريا، دمشق.

النائم الإلهام من لدن قوة إرسال عظيمة تبعث بالموجات إلي كل نائم خاصة. أي أن النوم رحمة من الله تبارك وتعالي تغشي النائم،...

ونحن في عالم اليقظة تحكمنا أقطار السموات والأرض... ونحن بدخولنا في النوم ننقل إلي عالم آخر، عالم الملكوت تستقبله الآفاق الواسعة للمخ البشري.

ونحن في عالم اليقظة، عالم الشهادة يحدنا الزمان والمكان، وأنت في عالم الرؤيا لا يحدك زمان ولا مكان، وسلطان النوم. يخرجك من حدود الآفاق ويخترق الأقطار إلي عالم اللازمان واللامكان..."[1]

****

(١) مخطوطة الجمل (معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن) لحسن عز الدين بن حسين الجمل ٢٥٥/٥، ٢٥٦ الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط: الأولى:٢٠٠٣ م.

المبحث الثاني
النوم نعمة

النعمة تستوجب الشكر، هذا مما لا خلاف فيه عند العقلاء، لذا كثيرا ما يلفت القرآن النظر إلى نعم الله المختلفة في الآفاق وفي الأنفس، وكثيرا ما تكون النعمة ظاهرة، ولظهورها تصبح أمرا معتادا عند الناس لا يلفت النظر والتأمل، لذا فالتذكير بهذه النعم أمر بالغ الأهمية.

ومن هذه النعم الظاهرة، نعمة النوم، "وَحَالَةُ النَّوْمِ حَالَةٌ عَجِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ إِذْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي نِظَامِ أَعْصَابِ دِمَاغِهِ قَانُونًا يَسْتَرِدُّ بِهِ قُوَّةَ مَجْمُوعِهِ الْعَصَبِيِّ بَعْدَ أَنْ يَعْتَرِيَهُ فَشَلُ الْإِعْيَاءِ مِنْ إِعْمَالِ عَقْلِهِ وَجَسَدِهِ فَيَعْتَرِيَهُ شِبْهُ مَوْتٍ يُخَدِّرُ إِدْرَاكَهُ وَلَا يُعَطِّلُ حَرَكَاتِ أَعْضَائِهِ الرَّئِيسِيَّةَ وَلَكِنَّهُ يُثَبِّطُهَا حَتَّى يَبْلُغَ مِنَ الزَّمَنِ مِقْدَارًا كَافِيًا لِاسْتِرْجَاعِ قُوَّتِهِ فَيُفِيقُ مِنْ نَوْمَتِهِ وَتَعُودُ إِلَيْهِ حَيَاتُهُ كَامِلَةً.(١)

وجاء "النوم" في القرآن في سياق امتنانه سبحانه على عباده، وتعداده لنعمه، وذلك في هذه الآيات: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٧] ﴿ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [النبأ: ٩،١٠] ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم: ٢٣]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٧٦/٢١.

وفي آيتي الفرقان والنبأ ذكر سبحانه أنه جعل النوم سباتا، وأصل السبت: القطع، ومنه سبت السير: قطعه، وسبت شعره: حلقه، وأنفه: اصطلمه،... وقوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ [الأعراف: ١٦٣] }، قيل: يوم قطعهم للعمل، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، قيل: معناه لا يقطعون العمل، وقيل: يوم لا يكونون في السبت، وكلاهما إشارة إلى حالة واحدة، وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ [النحل: ١٢٤]، أي: ترك العمل فيه، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ [النبأ: ٩]، أي: قطعا للعمل، وذلك إشارة إلى ما قال في صفة الليل: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧].(١)

و «السبات» ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضا، فشبه النائم به، والسبت الإقامة في المكان فكأن السبات سكون ما وثبوت عليه.(٢)

والمعنى: جعل لكم النوم قطعا لأعمالكم، راحة لأبدانكم، وهدوءا لنفوسكم. قال أبو السعود: أي وجعلَ النَّومَ الذي يقعُ في اللَّيلِ غالباً قطعاً عن الأفاعيل المختصَّة بحال اليقظةِ.(٣)

وقال ابن كثير: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أَيْ: قَطْعًا لِلْحَرَكَةِ لِرَاحَةِ الْأَبْدَانِ، فَإِنَّ

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب ٤٥١/١.

(٢) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢١٢/٤) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٦/ ٢٢٣) دار إحياء التراث العربي – بيروت.

الْأَعْضَاءَ وَالْجَوَارِحَ تَكِلُّ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي الِانْتِشَارِ بِالنَّهَارِ فِي الْمَعَايِشِ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَسَكَنَ سَكَنَتِ الْحَرَكَاتُ، فَاسْتَرَاحَتْ فَحَصَلَ النَّوْمُ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَالرُّوحِ مَعًا.(١)

وفسر الزمخشري السبات بالموت، على طريقة التشبيه البليغ، وهذا عنده كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] ولم يفسره بالراحة لمقابلته بالنشور في ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧]. إذا النشور انبعاث من النوم كنشور الميت أي ينشر فيه الخلق للمعاش.(٢)

وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَلَائِلُ النِّعَمِ، فَلَا يَلِيقُ الْمَوْتُ بِهَذَا الْمَكَانِ. وَأَيْضًا لَيْسَ الْمُرَادُ بِكَوْنِهِ مَوْتًا، أَنَّ الرُّوحَ انْقَطَعَ عَنِ الْبَدَنِ، بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ انْقِطَاعُ أَثَرِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، وَهَذَا هُوَ النَّوْمُ، وَيَصِيرُ حَاصِلُ الْكَلَامِ إِلَى: إِنَّا جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ نَوْمًا.(٣)

والمعنى الأول: هو الذي ذهب إليه عامة أهل التفسير، وهو أكثر مناسبة لمعنى السبت في لغة العرب.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١١٤) المحقق: محمد حسين شمس الدين،الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩هـ..

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٨٣) الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٧هـ ومدارك التنزيل للنسفي ٥٤١/٢ الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي (٣١/ ٩) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٢٠هـ..

وقوله ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أي كاللباس يستر ويغطي ما وراءه، كذلك الليل يستر بظلامه ما يأتي عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾ [الرعد: ٣] وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل: ١] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس: ٤]. والليل يستتر الناس به كما يستترون بالثياب التي يلبسونها.

ووجه كون ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ نعمة هُوَ أَنَّ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ تَسْتُرُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْعُيُونِ إِذَا أَرَادَ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ، أَوْ بَيَاتًا لَهُ، أَوْ إِخْفَاءَ مَا لَا يُحِبُّ الْإِنْسَانُ إِطْلَاعَ غَيْرِهِ عَلَيْهِ. وَأَيْضًا فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ بِسَبَبِ اللِّبَاسِ يَزْدَادُ جَمَالُهُ وَتَتَكَامَلُ قُوَّتُهُ وَيَنْدَفِعُ عَنْهُ أَذَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، فَكَذَا لِبَاسُ اللَّيْلِ بِسَبَبِ مَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ النَّوْمِ يَزِيدُ فِي جَمَالِ الْإِنْسَانِ، وَفِي طَرَاوَةِ أَعْضَائِهِ وَفِي تَكَامُلِ قُوَاهُ الْحِسِّيَّةِ وَالْحَرَكِيَّةِ، وَيَنْدَفِعُ عَنْهُ أَذَى التَّعَبِ الْجُسْمَانِيِّ، وَأَذَى الْأَفْكَارِ الْمُوحِشَةِ النَّفْسَانِيَّةِ، فَإِنَّ الْمَرِيضَ إِذَا نَامَ بِاللَّيْلِ وَجَدَ الْخِفَّةَ الْعَظِيمَةَ.(١)

والليل يستر الأشياء والأحياء فتبدو هذه الدنيا وكأنها تلبس الليل وتتشح بظلامه فهو لباس. وفي الليل تنقطع الحركة ويسكن الدبيب وينام الناس وكثير من الحيوان والطيور والهوام. والنوم انقطاع عن الحس والوعي والشعور. فهو سبات. ثم يتنفس الصبح وتنبعث الحركة، وتدب الحياة في النهار. فهو نشور من ذلك الموت الصغير، الذي يتداول الحياة على هذه الأرض مع البعث والنشور مرة في كل دورة من دورات الأرض الدائبة التي لا يصيبها الكلال. وهي تمر

(١) التفسير الكبير للرازي (٣١/ ١٠).

بالبشر وهم غافلون عما فيها من دلالة على تدبير الله، الذي لا يغفل لحظة ولا ينام.(١)

و«النشور» في آية الفرقان الإحياء، شبه اليقظة به، ليتطابق الإحياء مع الإماتة والتوفي اللذين يتضمنهما النوم والسبات، ويحتمل أن يريد بـ «النشور» وقت انتشار وتفرق لطلب المعايش وابتغاء فضل الله، وقوله ﴿ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧] وما قبله من باب ليل نائم ونهار صائم.(٢)

ومن رحمة الله، أنه جعل لكلٍ ما يناسبه ويلائمه ، حيث جعل الليل لباسا للنوم والراحة، والنهار ضياء للنشور والمعاش. ولو استمر أحدهما – الليل أو النهار – لكان في ذلك غاية المشقة. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١،٧٢]

واللافت تقديم {الليل لباسا} على {النوم سباتا} في آية الفرقان، وفي آيتي النبأ قدم النوم على الليل.

---

(١) في ظلال القرآن للأستاذ: سيد قطب (٥/ ٢٥٦٩، ٢٥٧٠) دار الشروق، الطبعة: السابعة عشر ١٤١٢ هـ..

(٢) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٤/ ٢١٢).

وأرى – والله أعلم – أن الترتيب في آية الفرقان جاء وفق المنظومة الكونية، فالليل يأتي أولا، فينام الناس، ثم يستيقظون فينتشرون نهارا للمعاش، وهكذا جاءت الآية.

أما آيتي النبأ فالمقصود بيان كون {النوم سباتا} نعمة، و{الليل لباسا} نعمة، بصرف النظر عن الترتيب، فـ {النوم سباتا} أي راحة سواء أكان ليلا أم نهارا، و{ الليل لباسا} سواء كان فيه نوم أم لم يكن. لذا كانتا آيتين، وليست آية واحدة كآية الفرقان.

أضف إلى ذلك: ما ذكره الإمام الألوسي في بيان وجه الترتيب بين آيتي النبأ حيث قال: ولا يخفى حسن ذكر جعل الليل لباسا بعد جعل النوم سباتا، وهو مشير إلى حكمة جعل النوم ليلا أيضا، لأن النائم معطل الحواس فكان محتاجا لساتر عما يضره فهو أحوج ما يكون للدثار وضرب خيام الاستتار.(١)

وبين قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبأ: ١٠] وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١١] مطابقة. وفيه مطابقة معنوية أيضا مع قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ [النبأ: ٩] من حيث أن النهار وقت اليقظة والمعاش في مقابلة السبات لأنه حركة الحي.(٢)

وفي نفس السياق، أي سياق امتنان الله على عبادة، وذكره لدلائل وحدانيته ومظاهر قدرته، جاءت آية الروم ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم: ٢٣]

---

(١) روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٨،٧) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) انظر: المرجع السابق (٣٠/ ٨).

وَالْمَنَامُ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ لِلنَّوْمِ أَوْ هُوَ اسْمُ مَصْدَرٍ. والمراد بالابتغاء: السعي لطلب الرزق.

قيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار. وقيل: المعنى صحيح من دون تقديم وتأخير، أي ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة، وابتغاؤكم من فضله فيهما، فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك، وإن كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر. والأوّل هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى، والآخر هو المناسب للنظم القرآني ها هنا.(١)

ومن الآيات التي تدل على الأول قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١١]

وبقاء الآية على حالها أولى من تكلف القول بالتقديم والتأخير. والتمسك بخصوصية الليل بالنوم، والنهار بابتغاء الرزق، كما هو الطبيعي والغالب في دنيا الناس على نحو ما صرحت به آيات أخرى، أقول: التمسك بهذه الخصوصية تعسف قد يفتح الباب أمام من يقول: هناك نفر من الناس ليس بالقليل مَن عمله ورزقه يكون ليلا، كما أن الكثير من الناس من يأخذ حظا من النوم بالنهار،

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (٤/٢٥٤) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، بيروت،ط: الأولى١٤١٤هـ..

لاسيما مع طول النهار وحرارة الجو. لذا فبقاء الآية على حالها أولى، وتكون بيانا لتعدد مظاهر نعم الله على عباده ليلا ونهارا، كل حسب مصلحته وظروفه.

قال ابن عطية: ذكر تعالى النوم بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وعرف النوم إنما هو بالليل وحده، ثم ذكر الابتغاء مِنْ فَضْلِهِ كأنه فيهما وإنما معنى ذلك أنه عم بالليل والنهار فسمى الزمان وقصد من ذلك تعديد آية النوم وتعديد آية ابتغاء الفضل فإنهما آيتان تكونان في ليل ونهار.(١)

وقال السمين الحلبي: والأحسنُ أَنْ يُجْعَلَ على حالِه، والنومُ بالنهار ممَّا كانَتِ العربُ تَعُدُّه نعمةً من الله، ولا سيما في أوقاتِ القَيْلولة في البلاد الحارَّة.(٢)

وعليه يكون المعنى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على القدرة والعلم ﴿مَنَامُكُم﴾ أي: نومكم ومكانه وزمانه الذي يغلبكم بحيث لا تستطيعون له دفعاً ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ قيلولة ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي: منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية، وطلب معاشكم فيهما فإن كثيراً ما يكسب الإنسان بالليل، أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار خلف، وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين وهما الواوان إشعاراً بأنّ كلاً من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة...

ويكون التقدير هكذا: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله. وأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفضل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل من فضل ربه. ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٤/ ٣٣٣).

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٩/ ٣٨) الناشر: دار القلم، دمشق.

المواضع منها قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]وقوله تعالى ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النحل: ١٤] (١).

وقدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة، فلا يتعب إلا محتاج في الحال أو خائف من المآل.(٢)

وَقَدْ جُعِلَتْ دَلَالَاتُ الْمَنَامِ وَالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذَيْنِ حَالَتَانِ مُتَعَاوِرَتَانِ عَلَى النَّاسِ قَدِ اعْتَادُوهُمَا فَقَلَّ مَنْ يَتَدَبَّرُ فِي دَلَالَتِهِمَا عَلَى دَقِيقِ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى فَمُعْظَمُ النَّاسِ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُوقِفُهُمْ عَلَى هَذِهِ الدَّلَالَةِ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَيْهَا.

وَثَانِيهُمَا: أَنَّ فِي مَا يَسْمَعُهُ النَّاسُ مِنْ أَحْوَالِ النَّوْمِ مَا هُوَ أَشَدُّ دَلَالَةً عَلَى عَظِيمِ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا يَشْعُرُ بِهِ صَاحِبُ النَّوْمِ مِنْ أَحْوَالِ نَوْمِهِ، لِأَنَّ النَّائِمَ لَا يَعْرِفُ مِنْ نَوْمِهِ إِلَّا الِاسْتِعْدَادَ لَهُ وَإِلَّا أَنَّهُ حِينَ يَهُبُّ مَنْ نَوْمِهِ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ نَائِمًا فَأَمَّا حَالَةُ النَّائِمِ فِي حِينِ نَوْمِهِ وَمِقْدَارُ تَنَبُّهِهِ لِمَنْ يُوقِظُهُ، وَشُعُورُهُ بِالْأَصْوَاتِ الَّتِي تَقَعُ بِقُرْبِهِ، وَالْأَضْوَاءِ الَّتِي تَنْتَشِرُ عَلَى بَصَرِهِ فَتُنَبِّهُهُ أَوْ لَا تُنَبِّهُهُ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَتَلَقَّاهُ النَّائِمُ إِلَّا بِطَرِيقِ الْخَبَرِ مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ أَيْقَاظًا فِي وَقْتِ نَوْمِهِ. فَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِتَفَاصِيلِ أَحْوَالِ النَّائِمِينَ وَاخْتِلَافِهَا السَّمْعُ، وَقَدْ يُشَاهِدُ الْمَرْءُ حَالَ نَوْمِ غَيْرِهِ إِلَّا أَنَّ عِبْرَتَهُ بِنَوْمِهِ الْخَاصِّ بِهِ أَشَدُّ، فَطَرِيقُ السَّمْعِ هُوَ أَعَمُّ الطُّرُقِ لِمَعْرِفَةِ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِ

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني (٣/ ١٦٣) الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، عام النشر: ١٢٨٥هـ

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٥/ ٩٣).

النَّوْمِ، فَلِذَلِكَ قِيلَ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ. وَأَيْضًا لِأَنَّ النَّوْمَ يَحُولُ دُونَ الشُّعُور بالمسموعات بادئ ذِي بَدْءٍ قَبْلَ أَنْ يَحُولَ دُونَ الشُّعُورِ بِالْمُبْصَرَاتِ.

وَأُجْرِيَتْ صِفَةُ يَسْمَعُونَ عَلَى قَوْمٍ لِلْإِيمَاءِ إِلَى أَنَّ السَّمْعَ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُمْ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ مُقَوِّمَاتِ قَوْمِيَّتِهِمْ... وَوَجْهُ جَعْلِ ذَلِكَ آيَاتٍ لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ تَعَدُّدِ الدَّلَالَاتِ بِتَعَدُّدِ الْمُسْتَدِلِّينَ وَتَوَلُّدِ دَقَائِقِ تِلْكَ الْآيَةِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ.(١)

وهذه الآيات فيها دلالة على قدرة الله (ﷻ)، وإظهار لنعمه على خلقه، ولا يخفى ما في تعاقب الليل والنهار، والنوم ليلا والانتشار نهارا، لا يخفي ما في ذلك من المنافع الدينية والدنيوية، وما أشبه النوم بالموت واليقظة بالإحياء.

ومن مظاهر القدرة الإلهية، والعناية الربانية، ما يراه النائم في نومه، وهي ما يعرف بالرؤى والأحلام، وهي لا تكون إلا في النوم، ولست هنا بصدد تفصيل الحديث عن الرؤى والأحلام، فهذا يحتاج إلى بحث مستقل، وما أود الإشارة إليه هو أن الرؤى من وسائل تبليغ وحي الله لرسله، ورؤيا الأنبياء وحي، كما حدث مع خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾ [الصافات: ١٠٢]

وقد ذهبت النبوة، ولم يبق منها إلا المبشرات أي رؤيا المحبوبات، وهي الرؤيا الصالحة للمسلم، فهي جزء من أجزاء النبوة. عن سَعِيد بْن الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ « لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ ». قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ قَالَ « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ ».(٢)

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ٧٦، ٧٧).

(٢) البخاري في التعبير باب(١) المبشرات حديث، رقم(٦٩٩٠).

وفي القرآن جاء النص صراحة على **الرؤيا مناما في موضعين**، هما آية الصافات التي سبق ذكرها ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣] والمراد بالمنام في الموضعين: النوم.

وزعم بعضهم أن معنى قوله: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ ﴾ [الأنفال: ٤٣] أي في عينك التي تنام بها. فصير المنام هو العين. لأنها مكان النوم، كما قيل للقطيفة: المنامة، لأنه ينام فيها. وأخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن.(١)

وهذا التفسير خلاف الظاهر المتبادر للذهن عند الإطلاق، وتفسير للفظ بغير ما هو معروف به. لذا عده الكرماني من غرائب التفسير.(٢)

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٩٠٧/٥) المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩ هـ – ومجاز القرآن لأبي عبيدة (٢٤٧/١) المحقق: محمد فواد سزگين،الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ..

(٢) انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني(٤٤٢/١) الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.

قَالَ الزَّجَّاجُ: وَهَذَا مَذْهَبٌ حَسَنٌ، وَلَكِنَّ الْأُولَى أَسْوَغُ فِي الْعَرَبِيَّةِ، لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٤٤] فَدَلَّ بِهَذَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ رُؤْيَةُ الِالْتِقَاءِ، وَأَنَّ تِلْكَ رُؤْيَةُ النَّوْمِ.(١)

وقال الزمخشري: وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته. (٢) وقال ابن كثير: وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ، وَقَدْ صُرِّحَ بِالْمَنَامِ هَاهُنَا، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا دَلِيلَ عليه.(٣)

وعامة أهل التفسير على القول الأول، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ [الأنفال: ٤٣] قَالَ: أَرَاهُ إِيَّاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلاً، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ (ﷺ) أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، وَكَانَ تَثْبِيتًا لَهُمْ.(٤)

ولقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، بأن قللهم في أعينهم يوم بدر، وإليه الإشارة بقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٤]. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: لَقَدْ قُلِّلُوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قُلْتُ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِي: تُرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ هُمْ مِائَةٌ، حَتَّى أَخَذْنَا رَجُلاً مِنْهُمْ فَسَأَلْنَاهُ قَالَ: كُنَّا أَلْفًا.(٥)

---

(١) انظر:الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/ ٢٢).
(٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٥).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٩).
(٤) جامع البيان لابن جرير (١٣/ ٥٧٠) وتفسير ابن أبي حاتم (١٧٠٩/٥).
(٥) جامع البيان لابن جرير (١٣/ ٥٧٢) وتفسير ابن أبي حاتم (١٧١٠/٥) وتفسير ابن كثير(٢/ ١٨).

ولما كان النوم من نعم الله الجليلة على الإنسان، ومطلبا لا يستغني عنه الجسد، فإنه ينبغي على الإنسان أن يأخذ حظه منه، ولا غضاضة في ذلك، بل ترك النوم أبدا مما نهى الشارع عنه. عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ (ﷺ) يَقُولُ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (ﷺ) يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ (ﷺ) فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ (ﷺ) قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّى أُصَلِّى اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَ « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّى لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّى أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّى وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى ». (١)

ونهي (ﷺ) عن الصلاة عند فتور نشاط المرء وتعبه، فعَنْ أَنَسٍ أيضا (ﷺ) قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الْمَسْجِدَ وَحَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ سَارِيَتَيْنِ فَقَالَ « مَا هَذَا ». قَالُوا لِزَيْنَبَ تُصَلِّى فَإِذَا كَسِلَتْ أَوْ فَتَرَتْ أَمْسَكَتْ بِهِ. فَقَالَ « حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا كَسِلَ أَوْ فَتَرَ قَعَدَ ». (٢)

وقلة النوم مما ينغص على الإنسان عيشه، ويخل توازنه، ويكدر مزاجه، ويورث اعتلال الجسم ووهنه، ويذهب بهاء الوجه ونضارته، ويشرد الذهن، ويقل التركيز، فيذهب الذكاء، ويقل الفهم، فيكون الغباء. والوسط في كل شيء هو العدل، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:

---

(١) البخاري في النكاح باب(١) الترغيب في النكاح حديث، رقم(٥٠٦٣).

(٢) البخاري في التهجد باب (١٨) ما يكره من التشديد في العبادة حديث رقم (١١٥٠)، ومسلم (واللفظ له) في صلاة المسافرين باب (٣١) أمر من نعس في صلاته حديث رقم (١٨٦٧).

٣١]، كذلك النوم، لا إفراط وتفريط، وكثرة النوم من المفسدات، حيث تميت القلب، وتضيع الوقت، وتورث الكسل، وتبعث على الغفلة والخمول، وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه.

قال ابن قيم الجوزية: وَبِالْجُمْلَةِ فَأَعْدَلُ النَّوْمِ وَأَنْفَعُهُ نَوْمُ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، وَسُدُسِهِ الْأَخِيرِ، وَهُوَ مِقْدَارُ ثَمَانِ سَاعَاتٍ، وَهَذَا أَعْدَلُ النَّوْمِ عِنْدَ الْأَطِبَّاءِ، وَمَا زَادَ عَلَيْهِ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ أَثَّرَ عِنْدَهُمْ فِي الطَّبِيعَةِ انْحِرَافًا بِحَسَبِهِ.(١)

وعلى المسلم أن يأخذ حظه من الليل بالقيام بين يدي الله (ﷻ)، فلا يليق بمسلم عاقل أن يقضى الليل كاملا في نوم أو سهر، ولو اتبع الإنسان سنة الله في كونه، بأن يخلد إلى النوم مبكرا، فسيسهل عليه الاستيقاظ لقيام الليل وصلاة الفجر، واغتنام ساعات البركة في أول النهار، وقد وصف الله عبادة المتقين الفائزين بالجنات والعيون بأنهم ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧] كان نومهم قليلا لأنهم قانتون لله، ساجدين قائمين، يحذرون الآخرة ويرجون رحمة الله، ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٨] يطلبون عفو الله ومغفرته على ما بدر منهم من ذنب أو تقصير في تلك الساعات – قبيل الفجر – التي يقبل الله فيها على عباده. فما أجمل مناجاة الله في سكون الليل، لها لذة لا توصف، لا يشعر بحلاوتها إلا من ذاقها، دونها كل اللذات، وتذبل الدنيا عند المناجي لله كأنها لاشيء، لاشعور بتعب أو وحشة مع ظلمة الليل، لأنه في عالم القدس والملكوت، فما أجمل الجلوس في حضرة المحبوب، ومناجاة من بذكره تطمئن

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية (١/ ٤٥٧) المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

القلوب، فهل من ذاق لذة المناجاة، والوقوف بين يدي الحليم المنان، هل يلذ بغيره؟ أجزم بـ"لا".

ولكن يا أسفاه على حال الكثير من المسلمين وشبابهم، حيث انقلب ليلهم نهارا، في السهر فيما لا يفيد، بل يضر في كثير من الأحيان، وانقلب نهارهم ليلا، بحيث إذا كان لأحدهم عمل بالنهار، صار يمارسه كالسكران أو مع سوء مزاج، لأنه كان بالليل سهرانا، وهذا أبعد ما يكون عن سلوك المسلمين الصالحين. أسال الله السلامة والعفو والمغفرة.

****

المبحث الثالث

الله تعالى لا ينام

الله – سبحانه – موصوف بكل كمال، منزه عن كل نقص، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لا يعتريه نوم، ولا يغلبه نعاس، يغير ولا يتغير، قائم على كل نفس بما كسبت، أحاط بكل شيء علما، يمسك السماوات والأرض أن تزولا، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، يعلم السر وأخفى، لا يعتريه ذهول أو نسيان، فسبحان من تفرد بالكمال، وتنزه عن النظير والمثال، فهو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

آية الكرسي هذه، تتضمن توحيده (ﷻ)، وصفاته العلا، وذلك في عشر جمل مستقلة، حوتها الآية الكريمة. فهو الله لا إله إلا هو، الأحد الفرد الصمد، فلا معبود بحق سواه، {الْحَيُّ}: الباقي، الدائم البقاء، الذي لا يناله الفناء. {الْقَيُّومُ}: الدائم القيام بتدبير الخلائق وحفظهم.

وقوله ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ أي لا يغلبه نعاس أو نوم، وهذه الجملة نفي للتشبيه، مؤكدة لما قبلها، مقررة لمعنى الحياة والقيومية الدائمة الكاملة، ولذلك ترك العاطف فيها وفي الجمل التي بعدها، فهي كالدليل على كونه حي قيوم، لأن من

جاز عليه النوم استحال أن يكون قيوما. و﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالدليل والتأكيد على أنه لا تأخذه سنة ولا نوم. لأنه خلقهما بما فيهما ومن يكن له ما فيهما فمحال نومه، إذ لو وجد شيء من ذلك لفسدتا.

وتوكيد «لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ» لقيامه- سبحانه- على كل شيء، وقيام كل شيء به. توكيد في صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشري صورة القيام الدائم. في الوقت الذي تعبر فيه هذه الصورة عن الحقيقة الواقعة من مخالفة الله- سبحانه- لكل شيء...﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].(١)

في الصحيح عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: « إِنَّ اللَّهَ (عَزَّوَجَلَّ) لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ (٢) وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ (٣) وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ».(٤)

---

(١) انظر: في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب (١/ ٢٨٧).

(٢) القِسط: الميزان. وسمي الميزان بالقسط وهو العدل، لأنه بالميزان يقع العدل. والمراد أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة، ويوزن من أرزاقهم النازلة، وهذا تمثيل لما يقدر تنزيله، فشبه بوزن الميزان. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٣) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

(٣) السبحات: نوره تعالى وجلاله وبهاؤه وهى جمع سُبْحَة. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٣، ١٤).

(٤) مسلم في الإيمان (١/ ١١١) باب (٨١) فِى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنَامُ ». حديث رقم:(٤٦٣) .

قولـه (ﷺ): "لاَ يَنَـامُ وَلاَ يَنْبَغِـى لَـهُ أَنْ يَنَـامَ " معنـاه أنـه (ﷻ) لا ينـام، وأنـه يستحيل في حقه النوم، فإن النوم انغمار وغلبة على العقل، يسقط به الإحساس، والله تعالى منزه عن ذلك، وهو مستحيل في حقه جل وعلا.(١)

والأَخْذُ: حوز الشيء وتحصيله، تارةً بالتناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩]، وتارةً بالقهر والغلبة، كما في ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. أي لا يغلبه. والتعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم الأخذ لمراعاة الواقع، إذ عروض السنة والنوم لمعروضهما إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء.(٢)

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، نَفْيُ الْغَلَبَةِ وَالْمُرَادُ نَفْيُ أَصْلِ النَّوْمِ وَالسِّنَةِ عَنْ ذَاتِهِ فَفِي الْآيَةِ التَّصْرِيحُ بِنَفْيِ النَّوْمِ وُقُوعًا وَجَوَازًا أَمَّا وُقُوعًا فَبِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وَأَمَّا جَوَازًا فَبِقَوْلِهِ: {الْقَيُّومُ} وَقَدْ جَمَعَهُمَا قَوْلُهُ (ﷺ): "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ".(٣)

---

(١) شرح النووي على مسلم (١/ ١٦١) دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) انظر: المفردات للراغب مادة (أخذ) صـ ٦٧ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٤٨/١).

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/ ٣٩٨) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

والمراد بالسنة: الغفلة والغفوة، وهي ما دون النوم، أي النعسة الخفيفة، أو الفتور الذي يسبق النوم، والنوم ما كان ثقيلا. وقد سبق بيان معنى السنة، فلا حاجة لإعادته.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿ **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ** ﴾ قال: السنة: النعاس، والنوم: هو النوم. عن قتادة والحسن في قوله: ﴿ **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ** ﴾ قالا: نعسة. عن الربيع(١): ﴿ **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾ قال: "السنة"، الوسنان بين النائم واليقظان.(٢)

ابن أبي حاتم: أَسْبَاطٌ(٣)، عَنِ السُّدِّيِّ(٤)، ﴿ **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾، أَمَّا السِّنَةُ: فَهُوَ رِيحُ النَّوْمِ، الَّذِي يَأْخُذُ فِي الْوَجْهِ فَيَنْعِسُ الْإِنْسَانُ، وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ،

---

(١) **الربيع:** هو الربيع بن أنس البكري أو الحنفي بصري نزل خراسان صدوق له أوهام ورمي بالتشيع من الخامسة مات سنة أربعين أو قبلها. أ. هـ تقريب التهذيب (ص: ٢٠٥) الناشر: دار الرشيد – سوريا،الطبعة الأولى، ١٤٠٦ – ١٩٨٦، تحقيق: محمد عوامة.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٥/ ٣٩١،٣٩٢).

(٣) **أسباط:** هو أسباط بن نصر الهمداني، بسكون الميم، أبو يوسف، ويقال: أبو نصر. صدوق كثير الخطأ يغرب من الثامنة. ا.هـ تقريب التهذيب (ص: ٩٨).

(٤) **السدي:** هو إسماعيل بن عبد الرحمن ابن أبي كريمة السدي بضم المهملة وتشديد الدال أبو محمد الكوفي صدوق يهم، ورمي بالتشيع من الرابعة، مات سنة سبع وعشرين. أ. هـ تقريب التهذيب (ص:١٠٨).

وَالضَّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ، وَيَحْيَى بْنِ رَافِعٍ[١]، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةَ، نَحْوُ ذَلِكَ.[٢]

قال الماوردي: السِّنةُ: النعاس في قول الجميع، والنعاس ما كان في الرأس, فإذا صار في القلب صار نوماً...وما عليه الجمهور من التسوية بين السِّنة والنعاس أشبه.[٣]

وقَالَ الْمفضل الضَّبِّيّ[٤]: السّنة فِي الرَّأْس، وَالنَّوْم فِي الْقلب، فَالسنة أول النّوم، وَهُوَ النعاس.وَمِنْهُم من فرق بَين السّنة وَالنُّعَاس، فَقَالَ: السّنة فِي الرَّأْس وَالنُّعَاس فِي الْعين، وَالنَّوْم فِي الْقلب.[٥]

والنوم سبق تعريفه، وهو تلك الحالةُ التي تعرِضُ للحيوان من استرخاء أعصابِ الدماغِ من رُطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقِف المشاعرُ الظاهرةُ عن الإحساس رأساً.

---

(١) هو **يحيى بن رافع** أبو عيسى، الثقفي، الكوفي، من الثالثة، ذكره ابن حبان في ((الثقات)). انظر: الثقات لابن حبان ٥/ ٥٢٦ الناشر: دار الفكر،الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٨٧).

(٣) النكت والعيون للماوردي (١/ ٣٢٤) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

(٤) **المفضل الضبي**:هو المفضل بن محمد الضبي الكوفي المقرىء صاحب عاصم. قال الخطيب: كان إخباريا علامة موثقا. وأما أبو حاتم فقال: متروك القراءة والحديث. وقال أبو حاتم السجستاني: هو ثقة في الأشعار غير ثقة في الحروف. مات سنة ثمان وستين ومائة. انظر: لسان الميزان لابن حجر (٦/ ٨١) الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٦هـ١٩٨٦م تحقيق: دائرة المعرف النظامية بالهند.

(٥) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (١/ ٢٥٧) المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

وعلى كل فالسنة والنوم في الآية الكريمة نكرتان في سياق النفي، فيفيدان عموم النفي وتنزيهه سبحانه عن كل ما يراد به سنة أو نعاس أو نوم. لأن النوم آفة، والله تعالى منزه عن الآفات، والنوم تغير، وهو سبحانه لا يعتريه تغير.

والمراد بالآية: التنزيهُ أنه سبحانه لا تدركُه آفة، ولا يلحقه خَلل بحالٍ من الأحوال، فجعلت هذه مثالاً لذلك، وأقيمَ هذا المذكورُ من الآفاتِ مقام الجميعِ، وهذا هو مفهومُ الخطَابِ[1] كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] وبيانه أنه إذا حرم التأفيف، فأحرى ما فوقه من الشَّتْمِ، والضَّرْب في حقِّ الأبوَيْن.[2]

ومما يدل على أن السهو والغفلة والنوم على الله محال هو أن هذه الأشياء إما أن تكون عبارات عن عدم العلم، أو عن أضداد العلم. وعلى التقديرين فجواز طريانها يوجب جواز زوال علم الله تعالى، فلا يكون العلم مقتضى ذاته فيفتقر إلى فاعل: فواجب الوجود لذاته لا يكون واجبا بجميع صفاته، فلا يكون حيّا ولا قيوما وهذا خلف.[3]

---

(١) يطلق المفهوم، ويقصد به معنى دلّ عليه اللّفظ لا في محلّ النّطق، أو هو: «دلالة اللّفظ على معنى في غير محلّ النّطق بأن يكون ذلك المعنى حكما لغير المذكور في الكلام، وحالا من أحواله، سواء كان ذلك الحكم موافقا لحكم المذكور، أو مخالفا له. انظر: إرشاد الفحول للشوكاني (ص:١٧٨) دار الفكر للطباعة والنشر.

(٢) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي (١/ ٥٠١) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٢/ ١٤) دار الكتب العلميه بيروت الطبعة: الأولى ١٤١٦ هـ.

قال القشيري[1]: ﴿ **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾ لأنه أحدى لا ترهقه غفلة، وصمد لا تمسه علة، وعزيز لا تقاربه قلة، وجبار لا تميزه عزلة، وفرد لا تضمه جثة، ووتر لا تحده جهة، وقديم لا تلحقه آفة، وعظيم لا تدركه مسافة.[2]

وتقديم السنة على النوم هو على أسلوب الإحاطة والإحصاء، مع مراعاة الترتيب الخارجي، والابتداء من الأخف فالأخف، فلتقدم السنة على النوم في الخارج، قدمت عليه في اللفظ. وهذا كقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً**﴾ [التوبة: ١٢١].

وقيل: إنه على طريق التتميم[3]، وهو أبلغ لما فيه من التأكيد إذ نفي السنة يقتضي نفي النوم ضمناً فإذا نفي ثانياً كان أبلغ. أي: لا تأخذه سنَة فضلًا عن أن يأخذه نوم.

وقيل: إن تأخير النوم رعاية للفواصل ولا يخفى أنه من ضيق العطن.

---

(١) **القشيري**: هو الإمام الزاهد، القدوة، الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، الصوفي، المفسر، ولد سنة خمس وسبعين وثلاث مئة. كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة. توفي سنة خمس وستين وأربع مئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٢٢٧- ٢٣٢).

(٢) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ١٩٧) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر، الطبعة: الثالثة.

(٣) **التتميم**: هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله تفيد نكتة كالمبالغة. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (ص:١٥٨).

وقال بعض المحققين: هذا كله إنما يحتاج إليه إذا أخذ الأخذ بمعنى العروض والاعتراء، وأما لو أخذ بمعنى القهر والغلبة كما ذكره الراغب وغيره من أئمة اللغة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤٢] فالترتيب على مقتضى الظاهر إذ يكون المعنى لا تغلبه السنة ولا النوم الذي هو أكثر غلبة منها.(١)

وَإِذَا ذُكِرَتْ صِفَاتٌ لِلْمَدْحِ فَالْأَوْلَى الِانْتِقَالُ فِيهَا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى لِيَكُونَ الْمَدْحُ مُتَزَايِدًا بِتَزَايُدِ الْكَلَامِ. فيقولون: فقيه عالم وشجاع باسل وجواد فياض. وَلَا يَعْكِسُونَ هَذَا لِفَسَادِ الْمَعْنَى، لِأَنَّهُ لَوْ تَقَدَّمَ الْأَبْلَغُ لَكَانَ الثَّانِي دَاخِلًا تَحْتَهُ، فَلَمْ يَكُنْ لِذِكْرِهِ مَعْنًى وَلَا يُوصَفُ بِالْعَالِمِ بَعْدَ الْوَصْفِ بِالْعَلَّامِ.(٢)

وكُررت {لَا} تأكيدًا [لشمول النفي لكل منهما]، وفائدتها: انتفاء كل واحد منهما على حِدَتِه؛ إذ لو أُسقطت {لَا}..لاحْتُمل انتفاؤهما بقيد الاجتماع. تقول: ما قام زيد وعمرو، بل أحدهما، ولا يقال: ما قام زيد ولا عمرو، بل أحدهما.(٣)

وجمع بينهما لأنه لو اقتصر على نفى السنّة عنه، لتوهم أن النوم يغلبه لأنه أشد، ولو اقتصر على نفي النوم لتوهم أن السنة تلحقه لخفتها.

قال النيسابوري: نفى الأخص أولا، ثم نفى الأعم ليفيد المبالغة من حيث لزوم نفي النوم أولا ضمنا ثم ثانيا صريحا. ولو اقتصر على نفي الأخص لم يلزم منه نفي الأعم.(٤)

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي (٣/ ٨).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٤٠٥).

(٣) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين (٤/ ٣٢).

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٢/ ١٤).

والمراد بيان انتفاء اعتراء شيء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه...والجملة نفى للتشبيه وتأكيد لكونه حيا قيوما فإن من أخذه نعاس أو نوم كان مؤوف[1] الحياة، قاصرا في الحفظ والتدبير والمعنى لا يعتريه ما يعترى المخلوقين من السهو والغفلة والملال والفترة في حفظ ما هو قائم بحفظه ولا يعرض له عوارض التعب المحوجة إلى الاستراحة فيستريح بالنوم والسنة لأن النوم أخو الموت والموت ضد الحياة وهو الحي الحقيقي فلا يلحقه ضد الحياة فكما أنه موصوف بصفات الكمال فهو منزه عن جميع صفات النقصان.[2]

ولَمْ يُرِدْ سُبْحَانَهُ بِنَفْيِ النَّوْمِ وَالسِّنَةِ عَنْ نَفْسِهِ إِثْبَاتَ الْيَقَظَةِ وَالْحَرَكَةِ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ لِلَّهِ تَعَالَى يَقْظَانُ وَلَا نَائِمٌ لِأَنَّ الْيَقْظَانَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ نَوْمٍ وَلَا يَجُوزُ وَصْفُ الْقَدِيمِ بِهِ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ نَفْيَ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ.[3]

وزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ شَرْطَ صِحَّةِ النَّفْيِ عَنِ الشيء صحة اتصاف الْمَنْفِيِّ عَنْهُ بِذَلِكَ الشَّيْءِ وَهُوَ مَرْدُودٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: ١٣٢] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مـريم: ٦٤] ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وَنَظَائِرُهُ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ انْتِفَاءَ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ قَدْ يَكُونُ لِكَوْنِهِ لَا يُمْكِنُ مِنْهُ عَقْلًا، وَقَدْ يَكُونُ لِكَوْنِهِ لَا يَقَعُ مِنْهُ مَعَ إِمْكَانِهِ، فَنَفْيُ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَسْتَلْزِمُ إِمْكَانَهُ.[4]

---

(١) طعامٌ مَؤُوفٌ أَصابته آفةٌ. انظر: لسان العرب لابن منظور (٩/ ١٦).

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي(١/ ٤٠٠) الناشر: دار الفكر – بيروت.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٨٥).

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٣٧٧)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٢٦٢) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

ومن الصور البلاغية في الآية الطباق في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ فإن النوم موت وغفلة، والحي القيوم يناقضه.

وتجدر الإشارة إلى أنه يسن قراءة آية الكرسي عند النوم، وإذا كانت آية الكرسي نفت السنة والنوم عن الله، ففي هذا – والله أعلم – إشارة وتذكير للمسلم أن من لا تأخذه سنة ولا نوم هو وحده كفيل بحفظه يقظة ومناما.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (ﷺ) قَالَ وَكَّلَنِى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِى آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ وَاللَّهِ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ). قَالَ إِنِّى مُحْتَاجٌ، وَعَلَىَّ عِيَالٌ، وَلِى حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قَالَ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِىُّ (ﷺ) « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ». قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ ». فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ). قَالَ دَعْنِى فَإِنِّى مُحْتَاجٌ، وَعَلَىَّ عِيَالٌ لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ ». فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –(ﷺ)، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ دَعْنِى أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا. قُلْتُ مَا هُوَ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِىِّ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِى كَلِمَاتٍ، يَنْفَعُنِى اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ « مَا هِىَ

». قُلْتُ قَالَ لِى إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِىِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴾ وَقَالَ لِى لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَىْءٍ عَلَى الْخَيْرِ. فَقَالَ النَّبِىُّ (ﷺ) « أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ». قَالَ لاَ. قَالَ « ذَاكَ شَيْطَانٌ ».(١)

إسرائيليات:

قال ابن كثير: وَقَدْ أَوْرَدَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ(٢) هَاهُنَا حَدِيثًا غَرِيبًا بَلْ مُنْكَرًا، فَقَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْجُنَيْدِ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ أُمَيَّةَ بْنِ شِبْلٍ، عَنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَحْكِي عَنْ مُوسَى، (عليه السلام) عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ: "وَقَعَ فِي نَفْسِ مُوسَى (عليه السلام): هَلْ يَنَامُ اللَّهُ (عز وجل) فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَأَرَّقَهُ ثَلَاثًا، وَأَعْطَاهُ قَارُورَتَيْنِ، فِي كُلِّ يَدٍ قَارُورَةٌ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِمَا. قَالَ: فَجَعَلَ يَنَامُ وَتَكَادُ يَدَاهُ تَلْتَقِيَانِ، ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ فَيَحْبِسُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى، حَتَّى نَامَ نَوْمَهُ، فَاصْطَفَقَتْ يَدَاهُ فَتَكَسَّرت الْقَارُورَتَانِ. قَالَ: ضَرَبَ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا أَنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ يَنَامُ لَمْ تَسْتَمْسِكِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ".

قال ابن كثير: وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَيْسَ بِمَرْفُوعٍ، بَلْ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْمُنْكَرَةِ فَإِنَّ مُوسَى (عليه السلام) أَجَلّ مِنْ أَنْ يُجَوّز عَلَى اللَّهِ (سبحانه وتعالى) النَّوْمَ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ

---

(١) البخاري في الوكالة باب(١٠): إِذَا وَكَّلَ رَجُلاً، فَتَرَكَ الْوَكِيلُ شَيْئًا، فَأَجَازَهُ الْمُوَكِّلُ، فَهُوَ جَائِزٌ.رقم(٢٣١١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٨٦ الأثر رقم (١٨٠١٤).

تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِأَنَّهُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٥].(١)

وقد ذكر ابن كثير هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: ٤١]، وذكره قبل هذا عند تفسيره لآية الكرسي، وقال معقبا عليه: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ إِسْرَائِيلِيٌّ لَا مَرْفُوعٌ.(٢)

قال ابن حجر: أُمَيَّةَ بْنِ شِبْلٍ يماني، له حديث منكر، رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعا قال: وقع في نفس موسى (عليه السلام) هل ينام الله الحديث. رواه عنه هشام بن يوسف، وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة قوله وهو أقرب ولا يسوغ أن يكون هذا وقع في نفس موسى (عليه السلام)، وإنما روى أن بني إسرائيل سألوا موسى (عليه السلام)عن ذلك.(٣)

وابن حجر يشير بقوله: " وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة قوله وهو أقرب " إلى أن الأقرب هو أن القول من كلام عكرمة، وليس مرفوعا، كما في رواية عبد الرزاق، وذكرها ابن كثير هكذا:

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ أَخْبَرَنِي الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أَنَّ مُوسَى (عليه السلام) سَأَلَ الْمَلَائِكَةَ هَلْ يَنَامُ اللَّهُ (عز وجل)؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُؤَرِّقُوهُ ثَلَاثًا فَلَا يَتْرُكُوهُ يَنَامُ فَفَعَلُوا ثُمَّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٥٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٦٧٩).
(٣) لسان الميزان لابن حجر (١/ ٤٦٧).

أَعْطَوْهُ قَارُورَتَيْنِ فَأَمْسَكَهُمَا ثُمَّ تَرَكُوهُ وَحَذَّرُوهُ أَنْ يَكْسِرَهُمَا. قَالَ: فَجَعَلَ يَنْعَسُ وَهُمَا فِي يَدِهِ فِي كُلِّ يَدٍ وَاحِدَةٍ قَالَ: فَجَعَلَ يَنْعَسُ وَيَنْبَهُ وَيَنْعَسُ وَيَنْبَهُ حَتَّى نَعَسَ نَعْسَةً فَضَرَبَ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى فَكَسَرَهُمَا. قَالَ مَعْمَرٌ: إِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يقول: فكذلك السموات وَالْأَرْضُ فِي يَدَيْهِ.

قال ابن كثير: وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَحْيَى عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ فَذَكَرَهُ [1] وَهُوَ مِنْ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ مِمَّا يُعْلَمُ أَنَّ مُوسَى (عليه السلام) لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (عز وجل) وأنه منزه عنه.[2]

وهكذا نرى أن سؤال موسى، لا يسوغ ، وغير صحيح النقل، سواء قيل برفع الرواية أو قطعها على عكرمة.

وأخرج ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: يَا مُوسَى هَلْ يَنَامُ رَبُّكَ؟ قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ. فَنَادَاهُ رَبُّهُ (عز وجل): يَا مُوسَى سَأَلُوكَ: هَلْ يَنَامُ رَبُّكَ فَخُذْ زُجَاجَتَيْنِ فِي يَدَيْكَ فَقُمِ اللَّيْلَةَ فَفَعَلَ مُوسَى فَلَمَّا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ ثُلُثٌ نَعَسَ فَوَقَعَ لِرُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ انْتَعَشَ فَضَبَطَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ نَعَسَ فَسَقَطَتِ الزُّجَاجَتَانِ فَانْكَسَرَتَا. فَقَالَ: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات وَالْأَرْضُ فَهَلَكْنَ كَمَا هَلَكَتِ الزُّجَاجَتَانِ فِي يَدَيْكَ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ (صلى الله عليه وسلم) آيَةَ الْكُرْسِيِّ.[3]

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير(٥/ ٣٩٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٦٧٨).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٨٧/٢) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٦٧٩) والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (١٥/٢) طبعة: دار الفكر. والأثر فيه جعفر بن أبي المغيرة الخزاعي القمي، صدوق يهم من الخامسة، ذكره ابن حبان في الثقات، ونقل عن أحمد بن حنبل توثيقه. وقال ابن مندة: ليس بالقوي في سعيد بن جبير. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٢/ ٩٢) وتقريب التهذيب له أيضا (صـ ١٤١).

وهذا الأثر قد يكون أقرب للقبول، بخلاف سابقه المنكر، فعلى فرض وقوع السؤال، فهو من بني إسرائيل لموسى، وليس من موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وهذا على عادة بني إسرائيل في اللجاجة والعناد ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: ١٥٣]. والله أعلم.

****

المبحث الربع

نظرات في آية الزمر

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢]

جعل الله لكل حي أجلا، ولكل أجل كتاب، فإذا جاء الأجل فلا تقديم ولا تأخير. وبالموت تنقطع الآجال، وتنتهي الدهور والأعوام، وقد اختص الله وحده دون سواه بعلم ساعة الموت، لذا أضاف التَّوَفّي – الإماتة – إلى نفسه فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾، وإضافة التوفي إليه– سبحانه– في هذه الآية حقيقة، وإذا أضيف لغيره فليس كذلك، كما في ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١] و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ٦١]، فالملائكة وسائط.

ووجه الجمع بين هذه الآيات أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى، فإذا حضر أجل العبد، أمر الله ملك الموت بقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه فحصل الجمع بين الآيات. وقيل: المراد من قوله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام: ٦١] ملك الموت وحده وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له.(١)

---

(١) انظر: لباب التأويل للخازن(٥٩/٤) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ..

والتوفي: أخذ الشيء واستيفاؤه كاملا، ومنه: أَوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ. قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٣٥]، وتوفى الله فلانا: قبض روحه. واسم الفاعل متوفٍ، والمتوَفِّي هو الله، ومَلك الموت متوفًّ أيضاً لأنه مباشر التوفّي. واسم المفعول: متوَفًّى، بمعنى ميت. والوفاة: الموت، والجمع: وَفَيَات. ويعبّر عن الموت والنوم بالتَّوَفِّي، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]،﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠][1]، والتوفي ليس هو الموت، وإنما الموت بعض الذي يقتضيه لفظ التوفي.[2]

والتوفّي حقيقة في الإماتة، لأنَّه حقيقة في قبض الشيء مستوفى. وإطلاقه على النوم مجاز لشبه النوم بالموت في انقطاع الإدراك والعمل.

والتعبير عن الإماتة بالتوفي فيه دلالة على أن من مات فقد مات لأجله، مستوفيا إياه من غير نقص أو زيادة، وسواء أكان صغيرا أم كبيرا، على عكس ما قد يرد في أذهان البعض عند موت الصغار والشباب، وطول الأعمار لبعض الشيوخ والكهول. ويؤيد هذا المعنى ما ورد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)، قَالَ: "نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ فِي رَوْعِي أَنَّ نفْسًا لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ

---

(١) تأتي الوفاة في القرآن على ثلاثة معان: بمعنى الموت، ومن ذلك قول الله تعالى: { ثُمَّ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [الأنعام:٦١]. وبمعنى النوم، كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام:٦٠]، وبمعنى الرفع، ومنه قول الله لعيسى: {**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**} [آل عمران:٥٥].

(٢) انظر :المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٨٧٨) والتحرير والتنوير لابن عاشور(٢٤/ ٢٤).

أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمِ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلا بِطَاعَتِهِ".»[1].

والمراد بـ ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾: حين موت أجسادها، والمراد بـ ﴿مَنَامِهَا﴾ نومها.

والمعنى: الله الذي يتوفى الأنفس عند انقضاء آجالها، ونهاية أعمارها، ويتوفى أيضا الأنفس التي لم تنقض آجالها عند النوم. فيمسك النفس التي قدر لها الموت، بقبض روحها، ويرسل النفس الأخرى التي لم يقدر لها الموت إلى أجل معلوم عنده، وهو وقت الموت. فهو يقبض الأرواح يقظة ومناما.

وقد ذكر سبحانه في هذه الآية الوفاتين، الوفاة الكبرى وهي بالموت عند انقضاء الآجال، والوفاة الصغرى وتكون عند النوم. كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠]، فذكر هنا الصغرى ثم الكبرى، وفي آية الزمر ذكر الكبرى ثم الصغرى.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِى قَتَادَةَ[2] عَنْ أَبِيهِ حِينَ نَامُوا عَنِ الصَّلاَةِ قَالَ النَّبِىُّ (ﷺ) « إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا حِينَ شَاءَ ». فَقَضَوْا حَوَائِجَهُمْ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٦٦حديث رقم (٧٦٩٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٨٥/٤): وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف.أ.هـ وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته٤١٩/١، ٤٢٠ حديث رقم (٢٠٨٥) الناشر: المكتب الإسلامي.

(٢) **عبد الله بن أبي قتادة:** الأنصاري المدني ثقة من الثالثة، مات سنة خمس وتسعين. وأبوه **أبو قتادة** بن ربعي الأنصاري، صحابي جليل، المشهور أن اسمه الحارث، اختلف في= =شهوده بدرا، واتفقوا على أنه شهد أحدا وما بعدها وكان يقال له: فارس رسول الله (ﷺ)، وكانت وفاته بالكوفة في خلافة علي، سنة أربعين وقيل غير ذلك. انظر: تقريب التهذيب

وَتَوَضَّئُوا إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَابْيَضَّتْ فَقَامَ فَصَلَّى.(١)

وفي هذا دلالة صريحة على قبض الأرواح عند النوم، وإرسالها يكون بردها إلى الجسد، فيستيقظ ويعود للحياة.

قال الشوكاني: وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُقَلَاءُ فِي النَّفْسِ وَالرُّوحِ هَلْ هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ أَوْ شَيْئَانِ؟ وَالْكَلَامُ فِي ذَلِكَ يَطُولُ جِدًّا، وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ لِهَذَا الشَّأْنِ.(٢)

وأرى أن هذا مما استأثر الله بعلمه، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٥] فلا نجهد أنفسنا فيما لا سبيل لمعرفته، ولا يمكن الجزم به إلا بتوقيف، ولم يكلفنا سبحانه عناء البحث عنه أو معرفته، بل أمرنا بالتوقف فيه.

قال ابن جزي: هذه الآية للاعتبار، ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم، لأن النائم كالميت في كونه لا يبصر ولا يسمع ومنه قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠] وتقديرها ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ أي يمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي، ومعنى

لابن حجر(ص: ٣١٨) والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر أيضا (٣٢٧/٧-٣٢٩) الناشر: دار الجيل – بيروت، ط: الأولى ١٤١٢هـ تحقيق: علي محمد البجاوي.

(١) البخاري في مواقيت الصلاة باب (٣٥) في الآذان بعد ذهاب الوقت، حديث رقم (٥٩٥) وفي التوحيد باب (٣١) في الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ. حديث رقم (٧٤٧١).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٣٤).

إمساكها أنه لا يردها إلى الدنيا ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ أي يرسل الأنفس النائمة، وإرسالها هو ردّها إلى الدنيا، والأجل المسمى هو أجل الموت الحقيقي.(١)

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من التَّوفّي على الوجهينِ والإمساكِ في أحدِهما والإرسالِ في الآخرِ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ عجيبةً دالَّةً عَلى كمالِ قدرتِه تعالى وحكمته وشمول رحمتِه ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ في كيفَّيةِ تعلُّقِها بالأبدان وتوفّيها عنها تارة بالكُلَّيةِ كما عند الموت وإمساكها باقيةً لا تفنى بفنائِها وما يعتريها من السَّعادةِ والشَّقاوةِ وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النَّومِ وإرسالها حيناً بعد حينٍ إلى انقضاءِ آجالِها.(٢)

وأجدني أقف عند قوله تعالى ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۚ﴾ والمعنى: ويتوفى التي لم تمت في نومها. والآية بذلك تشير إلى أن النوم مظنة الموت، فلم هذه الإشارة؟

لعل السر في ذلك أن النوم راحة وهدوء، وقد لا يخطر ببال الإنسان أن يموت وهو نائم، لانقطاع الإنسان عن الحركة وموارد التهلكة ومسبباتها، فجاءت الإشارة إلى أن الإنسان قد يموت وهو نائم، كما قد يموت وهو يقظان، سواء بسواء، بسبب أو بدون سبب،إذا جاء الأجل، فيبغي أن يكون على أهبة الاستعداد للموت الأكبر الذي قد يداهمه وهو في موته الأصغر، وقد ورد في الحديث: «

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٢٢) المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي،الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٧/ ٢٥٧).

النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ »[1] لذا استحب الوضوء والذكر والدعاء عند النوم، حتى تكون الطاعة هي آخر ما يختم به الإنسان حياته.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ « إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ وَلْيُسَمِّ اللَّهَ فَإِنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ وَلْيَقُلْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّى بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِى وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِى فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ ».[2]

وإذا قدر الله تعالى إرسال النفس وحياتها، فإن هذا يستوجب شكرا وحمدا، وهذا أول ما ينبغي فعله عند لحظة الاستيقاظ. عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِىُّ (ﷺ) إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ: « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا ». وَإِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ قَالَ: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ».[3]

****

(١) الحديث يأتي بتمامه مع تخريجه في الصفحة التالية.

(٢) البخاري في الدعوات باب(١٣) السؤال بأسماء الله الحسنى، حديث رقم (٧٣٩٣) ومسلم (واللفظ له) في الذكر والدعاء باب(١٧) ما يقول عند النوم حديث رقم (٧٠٦٧).

(٣) البخاري في الدعوات باب (١٦) ما يقول إذا أصبح حديث رقم((٦٣٢٤).

المبحث الخامس
لا نوم في الجنة والنار

بعد فصل الحساب يوم القيامة، ينصرف الناس، فريق في الجنة وفريق في السعير، ويؤتى بالموت على هيئة كبش أملح فيذبح، وينادى منادٍ: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.(١) والقرآن فيه العديد من الآيات التي تؤكد على الخلود الأبدي لأهل النعيم، وآيات أخرى تؤكد الخلود الأبدي لأهل السعير. نسأل الله السلامة دنيا وأخرى.

وهذا الخلود لأهل النعيم لا يعتريه نوم، لانقطاع أسبابه من التعب والهم ونحوهما، فضلا عن كون النوم رفيق الموت.

عَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه) **قَالَ:** «سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ): أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: "النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَلَا يَمُوتُ أَهْلُ الْجَنَّةِ".(٢) أَيْ فَلَا يَنَامُونَ، وَهَذَا جَوَابٌ بِالدَّلِيلِ الْبُرْهَانِيِّ، وَهُوَ أَوْقَعُ فِي النَّفْسِ، وَأَظْهَرُ فِي اطْمِئْنَانِ الْإِيمَانِ مِنَ الْجَوَابِ الْإِجْمَالِيِّ بِأَنْ قَالَ: لَا.(٣)

---

(١) انظر الحديث بنصه في صحيح البخاري في كتاب التفسير، سورة مريم باب قَوْلِهِ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩] حديث رقم (٤٧٣٠).

(٢) المعجم الأوسط للطبراني(٢٨٢/١) حديث رقم(٩١٩) وشعب الإيمان للبيهقي(٢٦٢/١٠) حديث رقم (٤٥٥٩) قال الهيثمي في المجمع(٣٧٠/١١): رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح.أ.هـ.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن (سلطان) محمد، الهروي القاري (٩/ ٣٦٠٠) الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢هـ – ٢٠٠٢م.

وفي حديث القرآن عن أهل الجنة نجد قوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٤] والمقيل: مصدر قِلْتُ قَيْلُولَةً، أو موضع القيلولة، والقيلولة: نومة نصف النهار، أو الاستراحة فيه وإن لم يكن نوما.(١)

وقد استدل أهل التفسير بهذه الآية على انقضاء الحساب في منتصف النهار.

قَالَ الضَّحَّاكُ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا هِيَ ضَحْوَةٌ، فَيَقِيلُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى الْأَسِرَّةِ مَعَ الْحُورِ الْعَيْنِ، ويَقيل أَعْدَاءُ اللَّهِ مَعَ الشَّيَاطِينِ مُقْرَّنِينَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَفْرَغُ اللَّهُ مِنَ الْحِسَابِ نِصْفَ النَّهَارِ، فَيَقِيلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: إِنِّي لَأَعْرِفُ السَّاعَةَ الَّتِي يَدْخُلُ فِيهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ: هِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ ارْتِفَاعِ الضُّحَى الْأَكْبَرِ، إِذَا انْقَلَبَ النَّاسُ إِلَى أَهْلِيهِمْ لِلْقَيْلُولَةِ، فَيَنْصَرِفُ أَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، وَأَمَّا أَهْلُ [الْجَنَّةِ فيُنطلق بِهِمْ إِلَى] الْجَنَّةِ، فَكَانَتْ قَيْلُولَتُهُمْ [فِي الْجَنَّةِ] وَأُطْعِمُوا كَبِدَ حُوتٍ، فَأَشْبَعَهُمْ [ذَلِكَ] كُلَّهُمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: لَا يَنْتَصِفُ النَّهَارُ حَتَّى يَقِيلَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وَقَرَأَ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ

---

(١) انظر:المفردات للراغب (ص:٦٩٠) ولسان العرب لابن منظور (٥٧٢/١١) والمعجم الوجيز(ص:٥٢٣) مادة: (قيل).

﴿لَإِلَىٰ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨].[١] وفي قراءة لابن مسعود: (ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لإلى الجَحيم). [٢] وهي شاذة لمخالفتها رسم المصحف.

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: أهل الجنة يوم القيامة خير مستقرّا، وهو الموضع الذي يستقرّون فيه من منازلهم في الجنة من مستقرّ هؤلاء المشركين الذين يفتخرون بأموالهم، وما أوتوا من عرض هذه الدنيا في الدنيا، وأحسن منهم فيها مقيلا.

فإن قال قائل: وهل في الجنة قائلة؟ فيقال: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ فيها؟ قيل: معنى ذلك: وأحسن فيها قرارا في أوقات قائلتهم في الدنيا، وذلك أنه ذكر أن أهل الجنة لا يمرّ فيهم في الآخرة إلا قدر ميقات النهار من أوّله إلى وقت القائلة، حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، فذلك معنى قوله: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.[٣]

وفي قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ استعارة. لأن المقيل من صفات المواضع التي ينام فيها، ولا نوم في الجنة. وتقدير الكلام: وأحسن موضع للقائلة.

فكأن ذلك المكان من وثارة مهاده، وبرد أفيائه، يصلح أن ينام فيه لو كان ذلك جائزا. وهذا كقوله سبحانه في ذكر أصحاب الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦٢] أي مثل أوقات البكرة والعشيّ المعهودين في حال الدنيا. لأن الجنة لا يوصف زمانها بالأيام والليالي، لأن ذلك من صفات الزمان الذي

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١٠٤).
(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير(٢٥٩/١٩).
(٣) انظر: المرجع السابق (٢٥٨/١٩).

تتعاقب عليه الشمس طالعة وغاربة، فيسمّى نهارا بطلوعها، ويسمّى ليلا بقبوعها.(١)

وقيل: أريد بالمقيل مكان الاسترواح مطلقا، استعمالا للمقيد في المطلق، فهو مجاز مرسل، وإنما لم يبق على الأصل، لما أنه لا نوم في الجنة أصلا.(٢)

وعليه فلا يرد ما قد يفهم من المقيل في الآية من أن الجنة فيها نوم، لأن القيلولة اسم لمنتصف النهار ولا يشترط فيها نوم، فضلا عن أنه لا مانع أن يكون الكلام على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل على نحو ما سبق بيانه.

أما أهل النار: فهم أيضا لا ينامون، لأن النوم راحة، وقطع للهموم والأحزان، وتخفيف للآلام، وهيهات أن ينالوا شيئا من ذلك، فعذابهم دائم لا ينقطع، ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٤،٧٥]، فلا يخفف عنهم العذاب، وهم فيه آيسون من رحمة الله.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ﴾ [الزخرف: ٧٧] نادوا مالكا خازن النار: يا مالك، ليمتنا ربك فنستريح من العذاب. فيجيبهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧] في العذاب دائما، لا تموتون، ولا ينقطع عنكم العذاب.

---

(١) الموسوعة القرآنية لجعفر شرف الدين (٦/ ١٣٠،١٣١)، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٠ هـ..

(٢) انظر: الجدول في إعراب القرآن لمحمود بن عبد الرحيم صافي (١٩/ ٩) الناشر: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ..

وفي حديث القرآن عن أصحاب الجحيم نجد قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]

والبرد: معروف وهو ما قابل الحر، أي لا يجدون هواء باردا ولا ماء باردا. وهذا هو المعنى الظاهر، والمتبادر في لغة العرب عند الإطلاق، لذا كان هذا المعنى هو الراجح عند ابن جرير وغيره من المفسرين، لأن الأولى تأويل كتاب الله على الأغلب من معروف كلام العرب، دون غيره. (١)

وقد زعم بعض أهل العلم بكلام العرب أن البرد في هذا الموضع النوم، وأن معنى الكلام: لا يذوقون فيها نوما ولا شرابا، واستشهد لقيله ذلك بقول الكنديّ:

بَرَدَتْ مَرَاشِفُها عَليَّ فَصَدَّني... عَنْها وَعَنْ قُبُلاتِها البَرْدُ

يعني بالبرد: النُّعاس، والنوم إن كان يُبرِد غليلَ العطش، فقيل له من أجل ذلك البرد.(٢)

وممن نقل عنه هذا القول: مجاهد والسدي وأبو عبيدة والأخفش والكسائي وَالْفَرَّاءِ وَقُطْرُبٍ وَالْعُتْبِيِّ، وذكره البغوي عن ابن عباس.(٣)

قال الأخفش والفراء: هو النوم وذلك أن البرد لازم للنوم ولهذا يسكن العطش. وسببه توجه الحرارة الغريزية إلى الباطن عند فتور الحواس الظاهرة

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير (٢٤/ ١٦٤) والتفسير الكبير للرازي (٣١/ ١٦).

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير (١٦٣/٢٤).

(٣) انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٨٢ ومعالم التنزيل للبغوي ٣١٥/٨ والتفسير الكبير للرازي (٣١/ ١٦) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٣٠٧).

والحركات الاختيارية وفي أمثالهم «منع البرد البرد» أي أصابني من البرد ما منعني من النوم.(١)

وقال الراغب: وقولهم للنوم بَرْد، إمّا لما يعرض عليه من البرد في ظاهر جلده، أو لما يعرض له من السكون، وقد علم أنّ النوم من جنس الموت لقوله (ﷻ): ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، **وقال:** ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [النبأ: ٢٤] أي: نوما.(٢)

وَالْقَائِلُونَ بِهذا الْقَوْلِ تَمَسَّكُوا فِي إِثْبَاتِهِ بِوَجْهَيْنِ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا يُقَالُ: ذُقْتُ الْبَرْدَ، وَيُقَالُ: ذُقْتُ النَّوْمَ. الثَّانِي: أَنَّهُمْ يَذُوقُونَ بَرْدَ الزَّمْهَرِيرِ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُمْ مَا ذَاقُوا بَرْدًا.

وَالْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ: كَمَا أَنَّ ذَوْقَ الْبَرْدِ مَجَازٌ فَكَذَا ذَوْقُ النَّوْمِ أَيْضًا مَجَازٌ، وَلِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ أَيْ لَا يَسْتَنْشِقُونَ فِيهَا نَفَسًا بَارِدًا، وَلَا هَوَاءً باردا، والهواء المستنشق ممره الفم والألف فَجَازَ إِطْلَاقُ لَفْظِ الذَّوْقِ عَلَيْهِ.

وَالْجَوَابُ عَنِ الثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا البرد، بَلْ قَالَ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَاحِدًا، وَهُوَ الْبَرْدُ الَّذِي يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَيَسْتَرِيحُونَ إِلَيْهِ.(٣)

والزمهرير هو الغساق في أحد تفسيريه. وَقِيلَ: صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ.(٤)

---

(١) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٦/ ٤٣٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ١١٧).

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي ١٦/٣١، ١٧.

(٤) انظر: معالم التنزيل للبغوي ٣١٥/٨.

أخرج ابْن جرير عَن أبي الْعَالِيَة ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ قَالَ: فاستثنى من الشراب الحميم، ومن البَرْد: الغَسَّاق. وَهُوَ الزَّمْهَرِير. وَأخرج ابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ قَالَ: الْحَمِيم الْحَار الَّذِي يحرق والغساق الزَّمْهَرِير الْبَارِد. وَأخرج عبد الرَّزَّاق وَابْن الْمُنْذر عَن مُجَاهِد ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾قَالَ: لَا يستطيعونه من برده.(١)

وبذا يندفع ما قد يوهم التعارض بين هاتين الآيتين ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾، فالبرد المنفي في الآية الأولى، غير المثبت في الآية الثانية، فالأول هو ما كان فيه خير ومنفعة، والثاني وهو الغساق، ما كان به العذاب والألم، وليس هذا ببعيد أو مستغرب، ففي دنيانا نحتاج إلى ما نبرد به صيفا، في حين أننا نتأذى بالبرد شتاءًا، والشيء إذا زاد عن حده،انقلب إلى ضده.

وعند التأمل نلحظ أن كلا المعنيين لا يخلوان من وجاهة، وسبحان من جعل كلامه حمال ذو وجوه، وإذ كان ابن جرير وغيره رجحوا المعنى الأول باعتباره المتبادر من لغة العرب عند الإطلاق، فالمعنى الثاني ليس ببعيد عن لغة العرب، بل مستعمل فيها وفي أشعارها، وبه قال أئمة في لغة العرب على نحو ما سبق، بل الثاني يؤسس لمعنى جديد في الآية، والتأسيس أولى من التأكيد، كما هو معروف، وبيان ذلك أن البرد – المنفي في الآية – المقابل للحر، مفهوم ضمنا في هذه الآية ونظائرها من آيات العذاب، فلا يتصور برد فيمن كان فوقه ظلل من

(١) انظر: جامع البيان للطبري٢٤/١٦٤ والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٨/ ٣٩٦).

النار، وتحته ظلل من النار تتلظى،وهذا مستفاد أيضا من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

فإذا قال من قال: إن المقصود بالبرد في الآية: النوم، فقد أضاف نوعا جديدا من العذاب، يضاف إلى عذاباتهم، وألما يضاف إلى آلامهم، وهو أنهم محرومون من نوم أو نعاس يخفف عنهم وطأة ما هم فيه، على نحو ما هو معروف في دنيا الناس من كون النوم مسكن للآلام والأحزان. وسبحان من تعددت نعمه لأوليائه، وكثرت صنوف العذاب لأعدائه. وأكرر ثانية: المعنيان لا يخلوان من وجاهة، والقرآن حمال ذو وجوه، وفوق كل ذي علم عليم.

****

المبحث السادس
النعاس في بدر وأحد

الله يمتن على من يشاء من عباده بما يشاء، ومظاهر امتنان الله على عباده عديدة، وتكون المنة أحيانا في أمر ليس في حسبان العباد، وسبحان من أحاط بكل شيء علما. وهذا الأمر يتجلى بوضوح فيما أفاء الله على المسلمين الأوائل في غزوتي بدر الكبرى وأحد، حيث امتن الله عليهم في الغزوتين بنعمة النعاس، أمنة ورحمة منه (ﷻ)، وسبحان من يأتي بالفضل من حيث لا يحتسب العباد.

أخرج عبد بن حميد عَن قَتَادَة (ﷺ) قَالَ: كَانَ النعاس أَمَنَة من الله، وَكَانَ النعاس نعاسين، نُعَاس يَوْم بدر ونعاس يَوْم أحد. [1] وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: النُّعَاسُ فِي الْقِتَالِ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ. [2]

النعاس يوم بدر:

كانت غزوة بدر في رمضان في السنة الثانية للهجرة، حيث بلغ رسول الله (ﷺ) خبر عير محملة بأموال لقريش في طريقها إلى مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب، فندب النبي (ﷺ) أصحابه للتعرض لها، وخرجوا في نحو ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وليس معهم من الخيل إلا فرسان، فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، ومعهم سبعون بعيرا، يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، فكان رسول الله (ﷺ) وعلى ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيرا. أما أبو سفيان لما بلغه خبر رسول الله (ﷺ) بعث إلى أهل مكة مستصرخا، فنهضوا مسرعين، ولم يتخلف

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٤/ ٣١).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣/ ٧٩٣ الأثر رقم (٤٣٦٠).

من أشرافهم أحد سوى أبو لهب حيث عوض عنه رجلا كان له عليه دين، وحشدوا قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم من بطون قريش إلا بني عدى. ولما علم رسول الله (ﷺ) استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون وأحسنوا، فقال رسول الله (ﷺ): أشيروا علي أيها الناس. فبادر سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ (ﷺ) كَأَنَّك تُعَرِّضُ بِنَا؟ وَإِنِّي أَقُولُ عَنْ الْأَنْصَارِ، وَأُجِيبُ عَنْهُمْ فَاظْعَنْ حَيْثُ شِئْت، وَصِلْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ وَاقْطَعْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ وَأَعْطِنَا مَا شِئْتَ وَمَا أَخَذْتَ مِنّا كَانَ أَحَبّ إلَيْنَا مِمّا تَرَكْتَ وَمَا أَمَرْتَ فِيهِ مِنْ أَمْرٍ فَأَمْرُنَا تَبَعٌ لِأَمْرِك فَوَاَللهِ لَئِنْ سِرْتَ حَتّى تَبْلُغَ الْبَرْكَ مِنْ غِمْدَانَ، لَنَسِيرَنّ مَعَكَ وَوَاللهِ لَئِنْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ خُضْنَاهُ مَعَكَ. وَقَالَ لَهُ الْمِقْدَادُ: لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلَا إنّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ وَلَكِنّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ. فَأَشْرَقَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) وَسُرّ بِمَا سَمِعَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالَ سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إحْدَى الطّائِفَتَيْنِ وَإِنّي قَدْ رَأَيْتُ مَصَارِعَ الْقَوْمِ.(١)

وسار رسول (ﷺ) إلى بدر، أما أبو سفيان فسار في طريق البحر، ولما رأى أنه قد نجا أرسل إلى قريش أن ارجعوا، فأبوا إلا أن يأتوا بدرا ويقيموا فيها، لاسيما بعد استثارهم أبو جهل، وكان عدد المشركين مابين التسعمائة إلى الألف. وهكذا سارت الأمور ليقضى الله أمر كان مفعولا.

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٣/ ١٥٣- ١٥٦ الناشر: مؤسسة الرسالة – مكتبة المنار الإسلامية – بيروت – الكويت، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

وكان من رحمة الله (ﷻ) بالمسلمين في ليلة المعركة، أن غشاهم بالنعاش وأنزل عليهم المطر، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال: ١١]

والآية في معرض امتنانه (ﷻ) على المسلمين، وتذكيره إياهم بما أنعم عليهم قبيل القتال. أي اذكروا نعمة ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ هَذِهِ الآيَاتِ أُنْزِلَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فِيمَا أَغْشَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النُّعَاسِ أَمَنَةً مِنْهُ.(١)

والتعبير بالمضارع في الآية لحكاية الحال الماضية. والتغشية هي التغطية، والمراد: يلقى عليكم النعاس، والتعبير بالغشيان هنا فيه دلالة على الرأفة والرحمة والحنو، وكأن النعاس صار غطاء لهم عن ما هم فيه من الهم والغم من قتال لم يكن في الحسبان، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم وعدتهم. لذا كان النعاس في تلك الحال ﴿ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ (ﷻ).

والنعاس لا يكون ممن اشتد به الخوف، ولا يغشيه إلا بعد الأمن، فذكر لطفه ومنته الأمن بعد شدة الخوف، ذكر عظيم ما منَّ عليهم من الأمن لما ذكر من

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم(٥/ ١٦٦٤) أثر رقم (٨٨٤٠).

إلقاء النعاس عليهم والنعاس إنما يكون بعد الأمن، بعد ما كان من حالهم ما ذكر حيث قال: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: ٦]. (١)

والمراد بالنُّعَاسُ في الآية: النَّوْمُ الخفيف، وهو الذي قد يصيب الإنسان وهو واقف أو ماش، فالذي أصابهم خفق في الرؤوس. قال الراغب: وقيل: النُّعَاسُ هاهنا عبارةٌ عن السُّكُونِ والهُدُوّءِ. (٢) والراجح الأول، لدلالة الأحاديث عليه، فضلا عن أنه لا صارف عن إرادة المعنى الحقيقي، فهو أولى. فالآية دالة على وقوع النعاس يوم بدر، لتطمئن قلوب المؤمنين بنصر الله، فضلا منه ورحمة.

و"أَمَنَةً" مصدر من أمن الرجل يأمن أمنا وأمنة وأمانا، حال أو مفعول من أجله، والهاء فيها لتأنيث المصدر كما هي في المساءة والمشقة.

واعلم أن كل نوم ونعاس فإنه لا يحصل إلا من قبل الله تعالى فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله تعالى لا بد فيه من مزيد فائدة وذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أن الخائف إذا خاف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن.

وثانيها: أنهم خافوا من جهات كثيرة. أحدها: قلة المسلمين وكثرة الكفار. وثانيها: الأهبة والآلة والعدة للكافرين وقلتها للمؤمنين. وثالثها: العطش الشديد فلولا حصول هذا النعاس وحصول الاستراحة حتى تمكنوا في اليوم الثاني من القتال لما تم الظفر.

---

(١) تـأويلات أهـل السـنة لأبـي منصـور الماتريـدي (٥/ ١٦٠) المحقـق: د. مجـدي باسـلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٨١٤).

والوجه الثالث: في بيان كون ذلك النعاس نعمة في حقهم، أنهم ما ناموا نوماً غرقاً يتمكن العدو من معاقصتهم[1] بل كان ذلك نعاساً يحصل لهم زوال الإعياء والكلال مع أنهم كانوا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله ولقدروا على دفعه.

والوجه الرابع: أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة. فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز.[2]

وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها. وقيل: إن النوم غشيهم في حال التقاء الصفين، والمتبادر من الآية أنّ النعاس كان في أثناء القتال.

ويؤيد الأول ويرجحه – وهو أن النعاس كان في ليلة القتال– ما ورد عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ بَدْرٍ وَمَا مِنَّا إِنْسَانٌ إِلاَّ نَائِمٌ إِلاَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فَإِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي إِلَى شَجَرَةٍ وَيَدْعُو حَتَّى أَصْبَحَ وَمَا كَانَ مِنَّا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ.[3]

وقوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو إذ يغشاكم النعاس رفعا. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بضم الياء وفتح الغين

---

(١) القَعْصُ والقَعَصُ: القَتْل المُعَجَّل، والإِقْعاصُ أَن تضربَ الشيء أَو ترْميَه فيموت مكانَه، وضرَبَه فأَقْعَصَه أَي قتَله مكانه. انظر: لسان العرب لابن منظور (٧٨/٧) مادة (قعص)

(٢) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي(١٥/ ٤٦١).

(٣) مسند الإمام أحمد(١/ ١٢٥)، رقم (١٠٢٣) و(١/ ١٣٨) رقم (١١٦١) والحديث إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب فمن رجال أصحاب السنن. انظر المسند بتعليقات شعيب الأرنؤوط. الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة.

وتشديد الشين والنعاس نصبا. وقرأ نافع يغشيكم من أغشى خفيفة بغير ألف، النعاس نصبا.(١)

وعلى قراءة (إذ يغشاكم النعاسُ) برفع النعاس وإسناده إلى يغشاكم فيكون فاعلا، لا يخفى أن فاعل النعاس على الحقيقة هو الله.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ هذا المطر كان بعد النعاس، وقيل قبله. عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، أنزله عليهم قبل النعاس، طبَّق بالمطر الغبار، ولبّد به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به الأقدام.(٢)

وظاهر الترتيب في الآية: أن النعاس كان قبل المطر، فهو أولى، كما أنه المتبادر من الآثار الواردة في ذلك:

قال ابن جرير: وأما قوله (ﷻ): ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، فإن ذلك مطرٌ أنزله الله من السماء يوم بدر ليطهر به المؤمنين لصلاتهم، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مُجْنِبين على غير ماء. فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان قد وسوس إليهم بما حزنهم به من إصباحهم مجنبين على غير ماء، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر. فذلك ربطه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم

---

(١) كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص: ٢٨٢) الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ تحقيق: د. شوقي ضيف.

(٢) جامع البيان لابن جرير (١٣/ ٤٢٥).

على رملة ميثاء،[١] فلبَّدها المطر، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها، توطئةً من الله (ﷻ) لنبيه (ﷺ) وأوليائه، أسبابَ التمكن من عدوهم والظفر بهم..... ثم ساق ابن جرير الآثار في ذلك.

منها ما أخرجه بسنده عن علي (رضي الله عنه) قال: أصابنا من الليل طَشّ[٢] من المطر – يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر– فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف[٣] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله (ﷺ) يدعو ربه: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض! " فلما أن طلع الفجر، نادى: "الصلاة عبادَ الله! "، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله (ﷺ)، وحرض على القتال.[٤]

ومنها ما أخرجه عن محمد بن سعد بسنده عن ابن عباس قوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾، وذلك أن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبين مُحْدِثين، حتى تعاظم ذلك في صدور أصحاب رسول الله (ﷺ)، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المسلمون، وملئوا الأسقية، وسقوا الرِّكاب، واغتسلوا من

---

(١) "الرملة الميثاء"، اللينة السهلة. انظر: المعجم الوجيز (ص:٥٩٥).

(٢) "الطش"، المطر القليل، وهو فوق " الرذاذ ".انظر: لسان العرب لابن منظور (٣١١/٦).

(٣)"الحجف" (بفتحتين) جمع "جحفة". وهي الترس، يكون من الجلود ليس فيه خشب ولا عقب. انظر: لسان العرب لابن منظور (٣٩/٩).

(٤) قال محقق جامع البيان (١٣/ ٤٢٢) العلامة:أحمد شاكر: وهو خبر صحيح الإسناد، خرجه السيوطي مختصرًا بغير هذا اللفظ، ونسبة إلى ابن جرير، وأبي الشيخ، وابن مردويه. أ.هـ الدر المنثور للسيوطي (١٧١:٣).

الجنابة، فجعل الله في ذلك طهورًا، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رَملة، فبعث الله عليها المطر، فضربها حتى اشتدَّت، وثبتت عليها الأقدام.(١)

النعاس يوم أحد:

أثار انتصار المسلمين في بدر حفيظة المشركين في مكة، وعزموا على الثأر لما أصابهم، ودعا أسيادهم إلى جعل عير أبي سفيان التي نجت وقفا لحربهم القادمة مع رسول الله (ﷺ). ففعلوا، وخرجت قريش بحدها وحديدها ومن تابعها، وذلك في شوال في العام الثالث للهجرة. وسار بهم أبو سفيان حتى نزلوا ببطن الوادي من قِبَل أحد.

وَكَانَ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَسِفُوا عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ مَشْهَدِ بَدْرٍ وَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) لَيْلَة الْجُمُعَة رُؤْيَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ. رَأَيْت الْبَارِحَة فِي مَنَامِي بَقَرًا تُذْبَحُ، وَاَللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَرَأَيْت سَيْفِي ذَا الْفَقَارِ اِنْقَصَمَ مِنْ عِنْدِ ظُبَّتِهِ(٢) أَوْ قَالَ بِهِ فُلُول فَكَرِهْته وَهُمَا مُصِيبَتَانِ، وَرَأَيْت أَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ وَأَنِّي مُرْدِفٌ كَبْشًا. قَالُوا: وَمَا أَوَّلْتهَا؟ قَالَ: أَوَّلْت الْبَقَرَ بَقْرًا يَكُونُ فِينَا، وَأَوَّلْت الْكَبْشَ كَبْشُ الْكَتِيبَةِ، وَأَوَّلْت الدِّرْعَ الْحَصِينَةَ الْمَدِينَةَ، فَامْكُثُوا، فَإِنْ دَخَلَ الْقَوْم الْأَزِقَّةَ قَاتَلْنَاهُمْ وَرُمُوا مِنْ فَوْقِ الْبُيُوتِ، فَقَالَ أُولَئِكَ الْقَوْمُ: يَا نَبِيَّ اللَّه كُنَّا نَتَمَنَّى هَذَا الْيَوْمَ، وَأَبَى كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ إلَّا الْخُرُوجَ فَلَمَّا صَلَّى الْجُمُعَةَ وَانْصَرَفَ دَعَا بِاللَّأْمَةِ فَلَبِسَهَا، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْخُرُوجِ، فَنَدِمَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُول اللَّه اُمْكُث كَمَا أَمَرْتَنَا، فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إذَا أَخَذَ لَأْمَة الْحَرْب أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يُقَاتِل، نَزَلَ فَخَرَجَ بِهِمْ وَهُمْ أَلْف رَجُل وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ ثَلَاثَة آلَاف حَتَّى نَزَلَ بِأُحُدٍ، وَرَجَعَ عَنْهُ عَبْدُ

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير (١٣/ ٤٢١- ٤٢٤).

(٢) **الظُّبَة:** طَرَفُ السيف وحَدُّه. انظر: لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٢٢).

اللَّه بْن أُبَيّ اِبْن سَلُول فِي ثَلَثمِائَةٍ فَبَقِيَ فِي سَبْعمِائَةٍ، فَلَمَّا رَجَعَ عَبْد اللَّهُ سَقَطَ فِي أَيْدِي طَائِفَتَيْنِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمَا بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ، وَصُفَّ الْمُسْلِمُونَ بِأَصْلِ أُحُدٍ، وَصُفَّ الْمُشْرِكُونَ بِالسَّبْخَةِ وَتَعَبُّوا لِلْقِتَالِ، وَعَلَى خَيْل الْمُشْرِكِينَ – وَهِيَ مِائَةُ فَرَس – خَالِدُ بْن الْوَلِيد، وَلَيْسَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَرَسٌ وَصَاحِب لِوَاء الْمُشْرِكِينَ طَلْحَة بْن عُثْمَان، وَأَمَّرَ رَسُول اللَّه (ﷺ) عَبْد اللَّه بْن جُبَيْر عَلَى الرُّمَاة وَهُمْ خَمْسُونَ رَجُلًا وَعَهِدَ إِلَيْهِمْ أَنْ لَا يَتْرُكُوا مَنَازِلَهُمْ، وَكَانَ صَاحِبُ لِوَاءِ الْمُسْلِمِينَ مُصْعَب بْن عُمَيْر، فَبَارَزَ طَلْحَة بْن عُثْمَان فَقَتَلَهُ، وَحَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ حَتَّى أَجْهَضُوهُمْ عَنْ أَثْقَالِهِمْ، وَحَمَلَتْ خَيْلُ الْمُشْرِكِينَ فَنَضَحَتْهُمْ الرُّمَاةُ بِالنَّبْلِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ فَانْتَبَهُوهُمْ، فَرَأَى ذَلِكَ الرُّمَاة فَتَرَكُوا مَكَانَهُمْ، وَدَخَلَ الْعَسْكَر، فَأَبْصَرَ ذَلِكَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد وَمَنْ مَعَهُ فَحَمَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْخَيْل فَمَزَّقُوهُمْ، وَصَرَخَ صَارِخٌ: قَتَلَ مُحَمَّد أُخْرَاكُمْ، فَعَطَفَ الْمُسْلِمُونَ يَقْتُل بَعْضهمْ بَعْضًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَانْهَزَمَ طَائِفَة مِنْهُمْ إِلَى جِهَة الْمَدِينَة وَتَفَرَّقَ سَائِرهمْ وَوَقَعَ فِيهِمْ الْقَتْل ؛ وَثَبَتَ نَبِيُّ اللَّه حِين اِنْكَشَفُوا عَنْهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ فِي أُخْرَاهُمْ، حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَهُوَ عِنْدَ الْمِهْرَاسِ فِي الشِّعْب، وَتَوَجَّهَ النَّبِيُّ (ﷺ) يَلْتَمِس أَصْحَابه، فَاسْتَقْبَلَهُ الْمُشْرِكُونَ فَرَمُوا وَجْهَهُ فَأَدْمَوْهُ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَته، فَمَرَّ مُصْعِدًا فِي الشِّعْب وَمَعَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْر، وَقِيلَ: مَعَهُ طَائِفَة مِنْ الْأَنْصَار مِنْهُمْ سَهْل بْن بَيْضَاء وَالْحَارِث بْن الصِّمَّة، وَشُغِلَ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلَى الْمُسْلِمِينَ يُمَثِّلُونَ بِهِمْ يَقْطَعُونَ الْآذَان وَالْأُنُوف وَالْفُرُوجَ وَيَبْقُرُونَ الْبُطُون وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ أَصَابُوا النَّبِيّ (ﷺ) وَأَشْرَافَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَان يَفْتَخِر بِآلِهَتِهِ: أُعْلُ هُبَل، فَنَادَاهُ عُمَر: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلّ. وَرَجَعَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى أَثْقَالِهِمْ فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) لِأَصْحَابِهِ: إِنْ رَكِبُوا وَجَعَلُوا الْأَثْقَالَ

تَتَبَّعْ آثَار الْخَيْل، فَهُمْ يُرِيدُونَ الْبُيُوت، وَإِنْ رَكِبُوا الْأَثْقَالَ وَتَجَنَّبُوا الْخَيْل[1] فَهُمْ يُرِيدُونَ الرُّجُوع، فَتَبِعَهُمْ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاصٍ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: رَأَيْت الْخَيْلَ مَجْنُوبَة، فَطَابَتْ أَنْفُس الْمُسْلِمِينَ وَرَجَعُوا إِلَى قَتْلَاهُمْ فَدَفَنُوهُمْ فِي ثِيَابهمْ وَلَمْ يُغَسِّلُوهُمْ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَيْهِمْ، وَبَكَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى قَتْلَاهُمْ، فَسُرَّ الْمُنَافِقُونَ وَظَهَرَ غِشُّ الْيَهُودِ وَفَارَتْ الْمَدِينَة بِالنِّفَاقِ، فَقَالَتْ الْيَهُود: لَوْ كَانَ نَبِيًّا مَا ظَهَرُوا عَلَيْهِ، وَقَالَتْ الْمُنَافِقُونَ: لَوْ أَطَاعُونَا مَا أَصَابَهُمْ هَذَا.[2]

قال ابن إسحاق: أنزل الله في شأن أُحد ستين آية من آل عمران، وروى بن أبي حاتم من طريق المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف: أخبرني عن قصتكم يوم أحد قال اقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجدها ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى قوله ﴿أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].[3]

ومن هذه الآيات التي تصور الحالة السيئة للمسلمين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ

---

(١) الأثقال جمع ثقل (بفتحتين): وهو متاع المسافر، وعنى به الإبل التي تحمل المتاع. وجنب الفرس ونحوه: قاده إلى جنبه. انظر: المعجم الوجيز مادة (ثقل) (ص:٨٦)، ومادة (جنب) (ص:١١٩).

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٤٦) الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٣) انظر: المرجع السابق (٧/ ٣٤٧).

شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

والآية تصور رحمة الله (ﷻ) بطائفة المؤمنين الصادقين في هذه الأجواء العصيبة، حيث غشاهم بالنعاس بعد ما لحقهم الغم بعد إدراكهم الهزيمة، وانكفاء الجيش.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ معطوف على ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣] و﴿مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ﴾ أي الغم المذكور، والمراد بالغم ما لحق بالمسلمين من الهزيمة، وما أصابهم من قتل وخوف وأذى بعدما تمكن المشركون منهم. والتصريح بتأخر إنزال النعاس أمنة، وتراخيه بعد الغم بدلالة ثم، لزيادة البيان، والتذكير بعظيم نعمة الله (ﷻ) عليهم.

و{أمِنَةً} أي أمناً نُصب على المفعولية، و{نُّعَاساً} بدلٌ منها أو عطفُ بيانٍ، وقيل: مفعولٌ له، أو هو المفعول وأمنةً حالٌ منه متقدمةٌ عليه أو مفعول له حالٌ من المخاطبين على تقدير مضافٍ أي ذو أمنةٍ... وتقديمُ الظرفين - ﴿عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ﴾ - على المفعول الصريحِ للاعتناء بشأن المقدّمِ والتشويقِ إلى المؤخر، وتخصيصُ الخوفِ من بين فنونِ الغمّ بالإزالة لأنه المهمُّ عندهم حينئذ لما أن المشركين لما انصرفوا كانوا يتوّعدون المسلمين بالرجوع فلم يأمنوا كرَّتَهم وكانوا تحت الحَجَفِ متأهّبين للقتال فأنزل الله تعالى عليهم الأمنةَ فأخذهم النعاسُ.[1]

(١) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٠١/٢).

وقوله ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ أي نعاسا ألقاه الله على طائفة المؤمنين الصادقين دون الطائفة الأخرى وهم أهل الريب والنفاق الذين﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وفي هذا دلالة على أن النعاس لم يغش الجميع، ليميز الله الخبيث من الطيب.

قال ابن إسحاق: أنزل الله النعاس أمنة لأهل اليقين، فهم نيام لا يخافون، والذين أهمتهم أنفسهم أهل النفاق في غاية الخوف والذعر.(١)

أسباط، عن السدي: أن المشركين انصرفوا يوم أحد بعد الذي كان من أمرهم وأمر المسلمين، فواعدوا النبي (ﷺ) بدرًا من قابلٍ، فقال نعم! نعم! فتخوف المسلمون أن ينزلوا المدينة، فبعث رسول الله (ﷺ) رجلا فقال: "انظر، فإن رأيتهم قعدوا على أثقالهم وجنبوا خيولهم، فإن القوم ذاهبون، وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم وجنبوا أثقالهم، فإن القوم ينزلون المدينة، فاتقوا الله واصبروا" ووطَّنهم على القتال. فلما أبصرهم الرسولُ قعدوا على الأثقال سراعًا عجالا نادى بأعلى صوته بذهابهم. فلما رأى المؤمنون ذلك صدَّقوا نبي الله (ﷺ) فناموا، وبقى أناس من المنافقين يظنون أنّ القوم يأتونهم. فقال الله جل وعز، يذكر حين أخبرهم النبي (ﷺ) إن كانوا ركبوا الأثقال فإنهم منطلقون فناموا: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٦٥).

وعن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة، عن أبيه قال: سألت عبد الرحمن بن عوف عن قول الله (ﷻ): ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾. قال: ألقي علينا النوم يوم أحد. (١)

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِى طَلْحَةَ (رضي الله عنهما) قَالَ كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِى مِنْ يَدِى مِرَارًا، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ فَآخُذُهُ. (٢)

وفي الرواية الأخرى عن أَنَسٌ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِى مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ – قَالَ – فَجَعَلَ سَيْفِى يَسْقُطُ مِنْ يَدِى وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ.(٣)

وأخرج ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة وهشام بن عروة، عن عروة، عن الزبير، أنهما قالا: لقد رفعنا رءوسنا يوم أحد، فجعلنا ننظر، فما منهم من أحد إلا وهو يميل بجنب حجفته. قال: وتلا هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾.(٤)

وأبو طلحة هو زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي. مشهور بكنيته، كان من فضلاء الصحابة وهو زوج أم سليم بنت ملحان. والدة أنس بن مالك، وكان أنس حمل هذا الحديث عنه. وقد أبلى أبو طلحة يوم أحد بلاءً حسنا، صار يذكر له.

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير (٧/٣١٦ – ٣١٨).

(٢) البخارى فـي المغـازي بـاب (٢١) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ حـديث رقـم (٤٠٦٨).

(٣) البخاري في التفسير باب (١١) قَوْلِهِ ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾. حديث رقم ٤٥٦٢.

(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير (٧/ ٣١٩).

ففي الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَىِ النَّبِيِّ (ﷺ) مُجَوِّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ[1] – قَالَ – وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلاً رَامِيًا شَدِيدَ النَّزْعِ وَكَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا – قَالَ – فَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الْجَعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ فَيَقُولُ انْثُرْهَا لأَبِى طَلْحَةَ. قَالَ وَيُشْرِفُ نَبِىُّ اللَّهِ (ﷺ) يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ يَا نَبِىَّ اللَّهِ بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى لاَ تُشْرِفْ لاَ يُصِبْكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ نَحْرِى دُونَ نَحْرِكَ قَالَ وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِى بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا[2] تَنْقُلاَنِ الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِى أَفْوَاهِهِمْ ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلآنِهَا ثُمَّ تَجِيئَانِ تُفْرِغَانِهِ فِى أَفْوَاهِ الْقَوْمِ وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدَىْ أَبِى طَلْحَةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلاَثًا مِنَ النُّعَاسِ.[3]

ويعني جل ثناؤه بالطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم: هم المنافقون لا هم لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم، وخوف المنية عليها في شغل، قد طار عن أعينهم الكرى، يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكًا في أمر الله، وتكذيبًا لنبيه (ﷺ)، وَمحْسَبة منهم أن الله خاذل نبيه ومُعْلٍ عليه أهل الكفر به، يقولون: هل لنا من الأمر من شيء.

عن قتادة قال: والطائفة الأخرى: المنافقون، ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعبُه وأخذله للحق، يظنون بالله غير الحق ظنونًا كاذبة، إنما هم أهل شك

---

(١) المجوب: المترس عليه يقيه السلاح، الحجفة: الترس من جلد بلا خشب وهو نوع من السلاح.

(٢) الخدم: جمع خَدَمَة وهى الخلخال.

(٣) البخاري في المغازي، باب (١٨) ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ ﴾ حديث رقم: (٤٠٦٤) ومسلم (واللفظ له) في الجهاد والسير باب (٤٩)غَزْوَةِ النِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ. (٥/ ١٩٦) حديث رقم (٤٧٨٦).

وريبة في أمر الله: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾. (١)

قيل: أراد الله بالنعاس تمييز المنافقين من المؤمنين فأوقع النعاسَ على المؤمنين حتى أمِنُوا ولم يُوقع على المنافقين فبقوا في الخوف وقد أهمّتْهم أنفسُهم أي: حملتهم على الهمّ يقال: أمرٌ مهمٌّ. (٢)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ عَلَيْنَا، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، فَمَا مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا ذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعَتِّبِ بْنِ قُشَيْرٍ (٣)،مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَالْحُلْمِ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا، فَحَفَظَهَا مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ لِقَوْلِ مُعَتِّبٍ.(٤)

وهكذا نرى أن من فوائد ابتلاء المسلمين بالهزيمة في أحد، تمييز الصادقين من المنافقين ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وكان هذا النعاس علامة فارقة بين الفريقين، ووسما على جبين الطائفتين،

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير، (٧/ ٣٢٠).

(٢) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١٢٢) .

(٣) هو معتب بن قشير الأنصاري الأوسي شهد العقبة، وقيل إنه كان منافقا، وإنه الذي قال يوم أحد لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا. وقيل: إنه تاب. وذكره ابن إسحاق فيمن شهد بدرا. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦/ ١٧٥).

(٤) جامع البيان لابن جرير، (٧/ ٣٢٣) وتفسير ابن أبي حاتم (واللفظ له) (٣/ ٧٩٥) الأثر رقم (٤٣٧٣).

فغشي المؤمنين الصادقين، وطار من أعين المنافقين، وسبحان من يجعل من الشيء الواحد نعمة لطائفة، ونقمة لأخرى، وربك على كل شيء قدير.

ومن اللافت للنظر، أن النعاس في بدر كان قبل المعركة، وفي أحد كان في نهايتها، فهو سبحانه يأتي بالفضل وقتما يشاء، فكان في بدر عونا للمؤمنين على القتال ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وفي أحد كان صارفا للهم والغم الذي لحق بالمسلمين بسبب الهزيمة، وفي كلا الحالين كان أمنا من الله (ﷻ) للمؤمنين، على نحو ما نطقت به الآيات.

****

المبحث السابع

الهلاك قد يأتي ليلا (وهم نائمون)

من أعظم بلايا الإنسان في الدنيا الغفلة، الغفلة عن الله، وذكر الله، ولقاء الله. وتكمن خطورة الغفلة في أنها تجعل الإنسان كالسكران، لا يعي حقائق الأشياء، ولا يدرك ما قد تخبئه له الأقدار مما لا تحمد عقباه. ومثل هذا الإنسان لا يؤمن جانبه، ولا يبعد ظلمه وغدره، ويعظم شره وخطره، فهو في زعمه الموهوم بعيد عن المؤاخذة والعقاب. لذا كان لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. وقد حذر سبحانه من طاعة من غفل عن ذكره ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، (~): الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِق وَجِل خَائِفٌ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ.(١) اللهم لطفا وعفوا.

وفي القرآن تحذير من أن الهلاك قد يحيق بالظالمين وهم غافلون، فقد يأتي العذاب نهارا وهم يلعبون، وقد يأتي ليلا وهم نائمون. قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧،٩٨]

هذا تهديد ووعيد لأهل القرى الظالمة، بأنهم ليسوا بمأمن من عذاب الله. والمراد بأهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبل هذه الآية، وهم قوم نوح وهود

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٥١).

وثمود وشعيب. حيث ذكرت السورة – أعنى الأعراف– قصصهم ومصارعهم. وعلى هذا " وضع المُظهرِ موضِعَ المُضمر للإيذان بأن مدارَ التوبيخِ أمْنُ كلِّ طائفةٍ ما أتاهم من البأس لا أمنُ مجموعِ الأمم، فإن كلَّ طائفةٍ منهم أصابهم بأسٌ خاصٌّ بهم لا يتعداهم إلى غيرهم".(١)

وقيل: المراد بأهل القرى مكة وما حولها من القرى، ويدخل فيه أهل مكة دخولا أوليا لتكذيبهم النبي (ﷺ) ومعاندته. واللفظ عام، فالأولى أن يراد بأهل القرى: عموم القرى، حيث لا دليل على التخصيص، وحتى لا يظن أحد أنه بمأمن من مكر الله، وسنة الله لا تتخلف في الظالمين في أي زمان ومكان.

والاستفهام في ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ للتقريع والتوبيخ وإنكار ما هم عليه من أمان من بأس الله. وفي عبارة أبي السعود: والهمزةُ لإنكار الواقعِ واستقباحِه، لا لإنكار الوقوعِ ونفيِه... لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩] أ.هـ (٢) والمراد بالبأس: العذاب.

والاستفهام في: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف: ٩٨] كالذي قبله. وفي تكرير الاستفهام زيادة تقرير في إنكار ما أنكره، والمبالغة في التوبيخ الشديد، لذا لم يقل: أفأمن أهلُ القرى أي يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو ضحىً وهم يلعبون".

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ٢٥٤).

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود(٣/٢٥٤).

و{بَياتاً} أَيْ: وَقْتَ بَيَاتٍ، وَهُوَ اللَّيْلُ عَلَى أَنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَيَجُوزُ أن يكون مصدرا بمعنى: تبيتا، أو مصدرا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ: أَيْ مُبَيَّتِينَ، وَجُمْلَةُ وَهُمْ نائِمُونَ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ.(١)

وهنا سؤال: لم خصص الإتيان بهذين الزمنين دون غيرهما؟

فالجواب: بأنه من باب قولهم: ضربته الظهر والبطن، ومطرنا السهل والجبل؛ فعبر بالبيات عن زمن سكونهم، وبالضحى عن زمن اجتماعهم فيه؛ لأن أول ظهورهم وبعده يتفرقون في أشغالهم.

فإن قيل: ولم قال: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.؟ فأخبر بالاسم، وقال: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾. فأخبر بالفعل. فالجواب: بأن الاسم يقتضي الثبوت؛ والنائم ساكن، والفعل يقتضي التجدد؛ واللعب حركة تتجدد شيئا فشيئا.(٢)

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ تَعَالَى خَوَّفَهُمْ بِنُزُولِ ذَلِكَ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُونَ فِيهِ فِي غَايَةِ الْغَفْلَةِ، وَهُوَ حَالُ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ، وَحَالُ الضُّحَى بِالنَّهَارِ لِأَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الْمَرْءِ التَّشَاغُلُ بِاللَّذَّاتِ فِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ التَّشَاغُلَ بِأُمُورِ الدُّنْيَا، فَهِيَ لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَيَحْتَمِلُ خَوْضَهُمْ فِي كُفْرِهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَاللَّعِبِ فِي أَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.(٣)

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود(٣/ ٢٥٤) وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٦٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عرفة (٢/ ٢٣٧) الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م.

(٣) التفسير الكبير للرازي (١٤/ ٣٢٢).

أخرج ابن أبي حاتم بسنده قال: كَانَ هَرِمُ بْنُ حَيَّانَ[1]، يَخْرُجُ فِي وَسَطِ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف: ٩٧].

[2] وعَن أبي نَضرة[3] قَالَ: يسْتَحبّ إِذا قَرَأَ الرجل هَذِه الْآيَة ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ يرفع بهَا صَوته.[4]

وتلك سنة الله في الابتلاء بالضراء والسراء، والبأساء والنعماء، وتلك مصارع المكذبين السادرين، الذين كانوا قبلهم يعمرون هذه القرى ثم تركوها فخلفوهم فيها- أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله في غفلة من غفلاتهم، وغرة من غراتهم؟ أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله بالهلاك والدمار.. بياتاً وهم نائمون..

والإنسان في نومه مسلوب الإرادة، مسلوب القوة، لا يملك أن يحتاط ولا يملك أن يدفع عادية من حشرة صغيرة.. فكيف ببأس الله الجبار؟ الذي لا يقف له الإنسان في أشد ساعات صحوة واحتياطه وقوته؟

أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله.. ضحى وهم يلعبون.. واللعب يستغرق اليقظة والتحفز، ويلهي عن الأهبة والاحتياط. فلا يملك الإنسان، وهو غارٌّ في لعبه، أن

---

(١) **هرم بن حيان العبدي:** هو من صغار الصحابة مات في خلافة عثمان، وعن الحسن أنه لما مات دفن في يوم صائف فجاءت سحابة فرشت قبره وما حوله.انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦/ ٥٣٣).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٢٨).

(٣) **أبو نضرة:** هو عبد الملك بن أبي نضرة العبدي البصري صدوق ربما أخطأ من السابعة.أ.هـ تقريب التهذيب (ص: ٣٦٥).

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٣/ ٥٠٦).

يدفع عن نفسه مغيراً. فكيف بغارة الله التي لا يقف لها الإنسان وهو في أشد ساعات جده وتأهبه للدفاع؟

وإن بأس الله لأشد من أن يقفوا له نائمين أم صاحين. لاعبين أم جادين. ولكن السياق القرآني يعرض لحظات الضعف الإنساني، ليلمس الوجدان البشري بقوة، ويثير حذره وانتباهه، حين يترقب الغارة الطامة الغامرة، في لحظة من لحظات الضعف والغرة والفجاءة. وما هو بناج في يقظة أو غرة. فهذه كتلك أمام بأس الله سواء!.(١)

وفي نفس السورة – أعني الأعراف– وفي صدرها، أيه تدل على كثرة الأمم الهالكة ليلا أو نهارا في أوقات الغفلة، قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف: ٤]. وكأني بالسورة ذكرت بين الآيتين [آية ﴿٤﴾، ﴿٩٧﴾] مصارع السابقين من قوم نوح وهود وصالح وشعيب. دليلا على ما في الآيتين من بأس الله الذي لا يرد عن القوم الظالمين بياتا أو هم قائلون أو ضحى وهم يلعبون.

وكم هنا خبرية للتكثير، للدلالة على كثرة الأمم السالفة، التي أصابها بأس الله ليلا وهم نائمون، أو نهارا مستريحين وقت القيلولة.

وَالْقَيْلُولَةُ الِاسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهَا نَوْمٌ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُمْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا وَهُمْ غَيْرُ مُتَوَقِّعِينَ لَهُ إِمَّا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَ"أَوْ" لِتَصْرِيفِ الْعَذَابِ، مَرَّةً لَيْلًا وَمَرَّةً نَهَارًا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى مَنْ أَهْلَكْنَاهُمْ لَيْلًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَهْلَكْنَاهُمْ نَهَارًا.(٢)

---

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب (٣/ ١٣٤٠).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٢١٤).

وتخصيصُ الحالتين بالعذاب لما أن نزولَ المكروهِ عند الغفلة والدعَةِ أفظعُ وحكايتَه للسامعين أزجرُ وأردَعُ عن الاغترار بأسباب الأمن والراحةِ ووصفُ الكلِّ بوصفي البياتِ والقيلولة مع أن بعضَ المُهلَكين بمعزل منهما لا سيما القيلولةِ للإيذان بكمال غفلتِهم وأمنِهم.(١)

وهنا سؤال: ما وجه مجيء البأس بعد هلاك القرى؟

قال ابن جرير: إن لذلك من التأويل وجهين، كلاهما صحيح واضح منهجه:

أحدهما: أن يكون معناه: "﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: ٤]، بخذلاننا إياها عن إتباع ما أنزلنا إليها من البينات والهدى، واختيارها إتباع أمر أوليائها المُغْوِيتهَا عن طاعة ربها ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] إذ فعلت ذلك ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾، فيكون "إهلاك الله إياها"، خذلانه لها عن طاعته، ويكون"مجيء بأس الله إياهم"، جزاء لمعصيتهم ربهم بخذلانه إياهم.

والآخر منهما: أن يكون"الإهلاك" هو"البأس" بعينه، فيكون في ذكر"الإهلاك" الدلالةُ على ذكر"مجيء البأس"، وفي ذكر"مجيء البأس" الدلالة على ذكر"الإهلاك". وإذا كان ذلك كذلك، كان سواء عند العرب، بُدئ بالإهلاك ثم عطف عليه بالبأس، أو بدئ بالبأس ثم عطف عليه بالإهلاك. وذلك كقولهم: "زرتني فأكرمتني"، إذ كانت "الزيارة" هي"الكرامة"، فسواء عندهم قدم"الزيارة" وأخر"الكرامة"، أو قدم"الكرامة" وأخر"الزيارة" فقال: "أكرمتني فزرتني".(٢)

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ٢١٢).

(٢) جامع البيان لابن جرير (١٢/ ٣٠٠، ٣٠١).

ومن حماقات المشركين التي حكاها القرآن استعجالهم العذاب ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وكانوا يقولون على سبيل التعنت: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. فكان من إجابات القرآن على هذا التعنت: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس: ٥٠]. والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المستعجلين للعذاب: أخبرونى إن أتاكم العذاب وأنتم بالليل نائمون أو في النهار لاهون أو مشتغلون، ولا يخلو الحال من واحد منهما، إن أتاكم العذاب ماذا تستعجلون منه؟ الفرح والمسرة أم الحزن والندم؟ فلا تستعجلوه. فهو استعجال لأمر محقق الوقوع.

ومن النماذج التي ذكرها القرآن لوقوع الهلاك ليلا، ما حدث لحديقة "أصحاب الجنة" التي جاء ذكرها في سورة القلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: ١٧-٣٢]

والقصة – على نحو ما جاء في القرآن – كالآتي: اختبر الله أهل مكة كما اختبر أصحاب الحديقة، حين حلفوا ليقطعن ثمرها في الصباح المبكر، ولا يتركون

من ثمرها شيئا للمساكين، فنزل بالحديقة بلاء أحاط بها فدمرها ليلا وهم نائمون، فأصبحت كالشيء المحترق أو سوداء كالليل. وفي الصباح نادي بعضهم بعضا قائلين: هلموا مبكرين على حرثكم إن كنتم قاطعين لثماره، وساروا إلى حرثهم مسرعين، يحدث بعضهم بعضا بصوت منخفض، ويقولون: لا يدخلن الحديقة عليكم اليوم مسكين، وغدوا عازمين على المنع وإمساك الثمر عن المساكين، فلما شاهدوها وما صارت إليه من الخراب قالوا: ضللنا طريق الحديقة، وسرعان ما أدركوا حقيقة الأمر فقالوا: بل نحن ممنوعون من جني ثمارها بسبب عزمنا على حرمان المساكين. وقال أفضلهم: ألم أقل حين عزمتم على ما عزمتم عليه من المنع: هلا تستغفرون الله. قالوا: سبحان الله، لقد كنا ظالمين. وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، ويقولون: يا حسرتنا لقد تجاوزنا الحد حينما عزمنا على حرمان المساكين، وعسى ربنا أن يعوضنا خيرا من هذه الحديقة، فإلى الله وحده راغبون وعائدون وتائبون.

سبحان الله العظيم، الحديقة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتؤتي ما يكفي أصحابها وغيرهم من المساكين، ولكن هكذا الإنسان حينما تتسلط عليه الدنيا والغفلة عن الله،فبيت الأخوة النية ليلا على معصية، وهم غافلون، والله (ﷻ) لا يغفل ولا ينام. ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القلم: ١٩]، والطائف، هو ما يطوف بالشيء أي يحيط به، أو من يطوف، من الطواف وهو الدوران حول الشيء. وحقيقة الطائف الذي طاف بالحديقة لا نص عليه صراحة، ولكنه مفهوم من السياق في كونه أمر من الله أدى إلى دمار الحديقة وهلاكها. فضلا عن كونه لا يتعلق غرض بتعيين نوعه لأن العبرة فيما حصل بسببه.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ قال: طاف عليها أمر من أمر الله وهم نائمون.(١) قال الراغب: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾ تعريضا بما نالهم من النائبة.(٢)

وقيل: الطائف: الأمر الذي يأتي بالليل، ذكر هذا التخصيص الفراء، ويرده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].(٣)

وعلى كل فالمراد بالطائف: هو الدمار والهلاك الذي أحاط بها وسلطه الله عليها ليلا. والتنوين في ﴿طَآئِفٌ﴾ للتعظيم، أي أمر عظيم قد ألم بها. ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ تعيين لوقت الطواف، في محل نصب على الحال. أي: في حال نومهم، غافلون عما جرت به المقادير.

وقوله تعالى: ﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ إن قلت: هلا قيل: من الله من العزيز الجبار، فإن لفظ الرب يشعر بالرحمة والرأفة، والمحل محل العزة والانتقام؟ **فالجواب: من وجوه:**

الأول: أنه تخويف لقريش، أي إذا نالهم هذا مع استشعار الرحمة، فأحرى مع استشعار العزة والانتقام.

الثاني: أن السؤال إنما [يَرِدُ] لو قال: طائف من ربهم، وإنما قيل: من ربك.

---

(١) جامع البيان لابن جرير (٢٣/ ٥٤٤).

(٢) المفردات للراغب (ص:٣١١) مادة: طوف.

(٣) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٥/ ٣٤٩).

الثالث: أن [مآلهم] عاقبته الرأفة والرحمة، لَا العقوبة؛ لأنهم تابوا أو حسنت توبتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ إن قلت: ما أفاد مع أنه مفهوم؟ **فالجواب: من وجوه:**

الأول: أنه إشارة إلى أنهم أخذوا حالة أمنهم وطمأنينتهم.

الثاني: [لما] قصدوا صرامها في خفية عن المساكين، فعوقبوا بخسفها في خفية عنهم.

الثالث: هو إشارة إلى أن السبب في عقوبتهم بذلك مجرد عزمهم على صرامها خفية عن المساكين، أي عوقبوا به وهم في حالة لم يشتغلوا فيها بمعصية ولا مخالفة، بل كانوا نائمين فما الموجب لعقوبتهم إلا مجرد عزمهم وقسمهم، وعادة الله في إهلاك أكثر الأمم كونه على غرة وغفلة.(١)

وعُجل العقاب لهم قبل التلبس بمنع الصدقة لأن عزمهم على المنع وتقاسمهم عليه حقق أنهم مانعون صدقاتهم فكانوا مانعين. (٢)

وفي هذا نذير لكل من تسول له نفسه بمعصية، أو يعزم عليها، فقد يأتيه قدر الله وهو عاص، فلا يستطع فكاكا. أسال الله السلامة دنيا وأخرى.

****

(١) انظر: تفسير ابن عرفة (٤/٢٧١، ٢٧٢)

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور(٢٩/ ٨٢)

الخاتمة

أختم رحلتي مع (حديث القرآن عن النوم) بأهم النتائج:

١- النوم مطلب فطري للجسد كالطعام والشراب.

٢- جاء " النوم " في القرآن الكريم في تسعة مواضع، و"النعاس" في موضعين، و"السنة في موضع واحد، و"الرقاد" في موضعين.

٣- الإدراك الجسمي والمخ البشري لهما عمل ونشاط فعال أثناء رحلة النوم.

٤- ذكر الله "النوم" في القرآن في معرض امتنانه على عباده وتعداده لآلائه.

٥- في منظومة النوم واليقظة دليل على الموت والبعث.

٦- سنة الله أن جعل الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا.

٧- العدل هو الوسط، فعلى الإنسان أن يأخذ حظه من النوم بلا إفراط ولا تفريط.

٨- الله (ﷻ) لا ينام ولا ينبغي له أن ينام.

٩- من مات فقد استوفى أجله دون زيادة أو نقص.

١٠- النوم موت أصغر، وقد يأتي الموت الأكبر مناما أو يقظة سواء بسواء.

١١- النعاس يومي بدر وأحد كان أمنة ورحمة من الله للمسلمين، كما كان في "أحد" علامة فارقة بين الصادقين والمنافقين.

١٢- لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، والهلاك قد يأتي الظالمين بياتا وهم نائمون، أو قائلون، أو ضحى وهم يلعبون.

١٣- أهل الجنة لا ينامون – اللهم أجعلنا من أهلها–، كذلك أهل النار لا ينامون.

أسأل الله السلامة والعفو والعافية، وله – سبحانه – الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه المرجع والمآب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

١) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، خرج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣) إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٥هـ) دار الفكر للطباعة والنشر.

٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م تحقيق: علي محمد البجاوي.

٥) الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار الجيل – بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ تحقيق: علي محمد البجاوي.

٦) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ت: ٧٣٩) تحقيق الدكتور/ رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٧) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي

النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة. ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م.

٩) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

١٠) التسهيل لعلوم التنزيل، المؤلف: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦هـ.

١١) التعريفات،المؤلف: علي بن محمد بن علي الجرجاني، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ تحقيق: إبراهيم الأبياري.

١٢) تفسير ابن عرفة، المؤلف: محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: جلال الأسيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م.

١٣) تفسير السمعاني، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٤) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩ هـ.

١٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: الثانية ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م المحقق: سامي بن محمد سلامة.

١٦) التفسير الكبير المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

١٧) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)،المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

١٨) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت، الطبعة: الأولى،١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م.

١٩) تقريب التهذيب،المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار الرشيد – سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م تحقيق: محمد عوامة.

٢٠) تهذيب التهذيب،المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند،الطبعة: الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

٢١) جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠ م.

٢٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، قدم له: خليل محي الدين الميس مراجعه: صدقي محمد جميل، خرج أحاديثه: عرفات العشا، دار الفكر، بيروت لبنان ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٣) الجدول في إعراب القرآن الكريم، المؤلف: محمود بن عبد الرحيم صافي (ت: ١٣٧٦هـ) الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ.

٢٤) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ)، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

٢٥) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط،الناشر: دار القلم، دمشق.

٢٦) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى (ت: ٩١١هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط / الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢٧) روح البيان، المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي, المولى أبو الفداء (ت: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت.

٢٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: محمود الألوسي أبو الفضل الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٩) زاد المعاد في هدي خير العباد المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت

– الكويت،الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٦متحقيق: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط.

٣٠) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، عام النشر: ١٢٨٥ هـ.

٣١) سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

٣٢) سير أعلام النبلاء المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٣٣) شرح النووي على صحيح مسلم، لمؤلف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

٣٤) شعب الإيمان، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

٣٥) صحيح البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) طبعة: المكتبة السلفية، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ الثالثة ١٤٠٧ هـ.

٣٦) صحيح مسلم بشرح النووي للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦ هـ) إشراف: علي عبد الحميد أبو الخير طبعة: دار الخير للطباعة والنشر، توزيع دار السلام بالقاهرة.

٣٧) غرائب التفسير وعجائب التأويل، المؤلف: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (ت: نحو ٥٠٥هـ)، دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.

٣٨) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦هـ.

٣٩) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ط/ دار الريان للتراث والمكتبة السلفية، ط/ الثالثة ١٤٠٧ هـ.

٤٠) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى (ت ١٢٥٠ هـ) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت،الطبعة: الأولى ١٤١٤ هـ.

٤١) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية. المؤلف: سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل. ط/ دار الفكر ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

٤٢) في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ.

٤٣) القاموس المحيط، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة

الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

٤٤) كتاب السبعة في القراءات المؤلف: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت: ٣٢٤هـ) المحقق: شوقي ضيف الناشر: دار المعارف – مصر الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ.

٤٥) كتاب العين، المؤلف: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي.

٤٦) كتاب الكليات . لأبى البقاء الكفومى، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تأليف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري.

٤٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٤٨) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (ت: ٧٤١هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٤٩) لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.

٥٠) لسان الميزان، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦ – ١٩٨٦م، تحقيق: دائرة المعرف النظامية – الهند.

٥١) لطائف الإشارات للقشيري، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة

٥٢) مجاز القرآن، المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (ت: ٢٠٩هـ)، المحقق: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.

٥٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: دار الفكر، بيروت – ١٤١٢ هـ.

٥٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

٥٥) مختار الصحاح المؤلف: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة طبعة جديدة، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م تحقيق: محمود خاطر.

٥٦) مخطوطة الجمل – معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، المؤلف: حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣– ٢٠٠٨ م.

٥٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت.

٥٨) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (ت: ٧١٠هـ) – تحقيق: مروان الشعار، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط/ الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٥٩) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المؤلف: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي (ت: ١٠١٤هـ)،الناشر: دار الفكر، بيروت لبنان،ط: الأولى،١٤٢٢هـ.

٦٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٦١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي المؤلف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

٦٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن،المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ)، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية،الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م.

٦٣) المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

٦٤) المعجم الطبي الإنكليزي (قاموس عربي / إنكليزي، إنكليزي / عربي) ترجمة وإعداد د/ ناصر فضل الله ناصر الدين، ط/ الأولى ٢٠٠٧م، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، سوريا، دمشق.

٦٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، وضعه / محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٦٦) المعجم الوجيز طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم بمصر، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٦٧) المفردات في غريب القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ) دار التحرير للطبع والنشر ١٩٩١م

٦٨) الموسوعة القرآنية، خصائص السور، المؤلف: جعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٠ هـ.

٦٩) النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

****

فهرس البحث

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمة: (أهمية الموضوع وخطته).....	٣
المبحث الأول: التعريف بالنوم وذكر مرادفاته.....	٦
المبحث الثاني: النوم نعمة.....	١٨
المبحث الثالث: الله تعالى لا ينام.....	٣٣
المبحث الرابع: نظرات في آية الزمر.....	٤٧
المبحث الخامس: لا نوم في الجنة والنار.....	٥٣
المبحث السادس: النعاس في بدر وأحد.....	٦١
المبحث السابع: الهلاك قد يأتي ليلا (وهم نائمون).....	٧٧
الخاتمة: (نتائج البحث).....	٨٧
المراجع.....	٨٨
فهرس البحث.....	٩٩

****